تصميم: سارة سيف الدين
صور حضارية
الكاتبة
سمية عبد الحليم عويس
منارة الأفكار

جميع الحقوق محفوظة @ منارة الأفكار للنشر الإلكتروني

مايو ٢٠١٥

صور حضارية من تراثنا العربي

تأليف: أ. سمية عبد الحليم

رسم غلاف: أ. سارة سيف الدين

الموقع الإلكتروني للدار

/http://manaretalafkar.blogspot.com

صفحة الدار

https://www.facebook.com/profile.php?id=١٠٠٠٠٩٠٨٠٤٧

٨٨٩١

صور حضارية من تراثنا العربي

بقلم: سمية عبد الحليم عويس

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ...

((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون)) البقرة: ٣٠

صدق الله العظيم.

مقدمة...

يعيش شبابنا العربي المسلم اليوم حالة من اللاوعي بحال أمتهم ومكانتها وحضارتها وأمجادها وأبطالها . إلا من رحم الله . في حين أنهم مندمجون بشكل كبير مع الغرب ورموزه وفنونه وإعلامه وبما يفرضه علينا من تدمير وتغريب وأفكار ومثل غريبة عن حضارتنا ومجتمعاتنا العربية المسلمة .

وقد بدأ بعض شباب الأمة يفيقون ولله الحمد ، بدأوا يتجهون إلى حظيرة العروبة والإسلام ، وإني على يقين بأن شباب الأمة نبت صالح للرعيل الأول ، كل ما يلزمهم أن يستعيدوا أمجاد آبائهم وأجدادهم ويستنشقوا عبير الحضارة العربية والإسلامية بأنوف لا يزكمها ركام الإعلام الفاسد المسمم ، وأن يسترشدوا بمنارات الحضارات العربية والإسلامية عبر تاريخها الطويل:

كم سجلت صفحة التاريخ من مفخرةً
للعُرب والفُرس مُذ شادوا ومذ كانوا
أظلهم دين طه فانبروا قـُدُما
إلى الكفاح وفي الخيرات أعيانُ
كان التضامن طبعاً في جبلتهم
وفي الجهاد لهم سبقٌ وميدانُ

ما أحوجنا في زماننا هذا إلى العودة إلى التاريخ العظيم لأمتنا التي سادت الدنيا وملكت البسيطة قروناً ، ما أحوجنا إلى أن نستلهم من فصول حضارتنا مشاهد تمسح الوسن وتنشط الخاملين وتحيي الأرض الموات ، ما أحوجنا إلى الرجوع لينابيع ديننا التي لا تجف أبداً لنرتشف منها كؤوس الحكمة والنصر والتمكين .

نحتاج إلى تضحيات واسعة وخبرة نادرة وتربية دقيقة وحكيمة تتفق مع رسالتنا الخالدة السامية ...

نحتاج إلى نفخ الإيمان وإحياء الروح الوثابة والفكر الإسلامي الجريء الثائر على العجز والخور والفسق والمجون والرجعية والجهل والعمى .

تحتاج إلى محاربة مركب النقص في قلوب شبابنا ، ذلك الذي أكلهم وطغى عليهم بفعل التبشير والاستعمار العسكري والفكري والتعليم والتربية اللذين يتفقان مع روح الغرب وآرائه .

نحتاج إلى كل ذلك لنخرج من أعماقنا نفوساً جديدة في الروح والفكرة والمنهج والسلوك ..

وفي هذا الكتاب أقدم نماذجَ وصوراً من حضارتنا العربية والإسلامية فإن العرب لم يكونوا أجلافاً قبل الإسلام . كما يرى غوستاف لوبون[١] . بل يرى أن السجايا الخُلقية للعِرق العربي هي التي عينت اتجاهه وأنه وإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطئ، وأن تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات لا يتم إلا بالتدريج ، وأن جهل الناس لهذا الماضي الطويل لا يعني عدم وجوده ، وأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدماً ...

كما أشاد لوبون بفضل الرسول الأعظم . صلى الله عليه وسلم . على العرب وزعامته الكبرى لهم ، فالرسول في نظره ((كان يبدو رابط الجأش إذا هُزم ومعتدلاً إذا ما نُصر .. شديد الضبط لنفسه كثير التفكير ، صموتاً حازماً سليم الطوية ... صبوراً قادراً على احتمال المشاقّ ثابتاً بعيد الهمة لين الطبع وديعاً .. لا يهرب أمام المخاطر ولا يلقي بيديه إلى التهلكة .. وكان عظيم الفطنة ..)) ويقول : ((إن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تُصِب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً))[٢]

واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الكتاب وبمباحثه عقولاً ضالة فتهتدي وقلوباً غافلة فتثوب إلى رشدها وترجع إلى معقلها وأصلها بدلاً من السير وراء حضارات زائفة باطلة. وإن بلغت شأناً علمياً رفيعاً. فقد أضلت ورائها نفوساً كثيرة !!

***

المبحث الأول

١.مفهوم كلمة ((حضارة)).

٢.عوامل بناء الحضارة .

٣.اتصال الحضارات .

٤.مظاهر الحضارة .

****

١ . مفهوم كلمة ((حضارة))

في موسوعة القرن العشرين نجد أن الحضارة هي الإقامة في الحضر كما أن معناها التخلق بأخلاق أهل المدن والخروج من حالة البداوة والدخول في حالة الحضارة ، وفي قصة الحضارة لوول ديورانت استخدمت كلمة حضارة وكلمة مدنية بمعنى واحد .. ويمكن القول إن الحضارة هي محاولات الإنسان الاستكشاف والاختراع والتفكير والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة للوصول إلى مستوى حياة أفضل وهي حصيلة جهود الأمم كلها[١].

والحضارة كغيرها من الفنون الإنسانية الأخرى فعل نام متحرك كالكائن الحي تولد طفلة ناعمة الأظفار ثم يشتد ساعدها ويبدأ عهدها بالإزهار ومن بعده الإثمار وهو أخصب شبابها المعطي ؛ فإذا استنفدت طاقاتها المخزونة بدأت بالانحدار والشيخوخة رويداً رويداً فيشح عندها عطاؤها وينضب وتعود إلى النقطة التي

انطلقت منها ، أو أرقى قليلاً حسب رأي ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع .

وكل شجرة حضارة لأية أمة من الأمم تترك بلا ريب بذرة بقاء خلفها وهو الإرث الحضاري العام كالهواء الذي يمكن لأي شعب أن يفيد منه فلا يمكن أن تكون الحضارة منغلقة على ذاتها لا تأخذ ولا تعطي ، ولا ريب أن من حسن حظ الإنسانية أن يكون الأمر كذلك .

****

٢ . عوامل بناء الحضارة

والحضارة مشروط قيامها بطائفة من العوامل منها ما يستحث خطاها ومنها ما يعيق مسارها ، ومن هذه العوامل :

(١) العوامل الجيولوجية : فعصر الجليد أعاق مسارها ، والتربة الخصبة استحثت خطاها .

(٢) العوامل الجغرافية : المناخ المناسب يستحث خطاها ، ولكنه لا يخلق حضارة خلقاً إلا أنه يهيئ سبيل ازدهارها وتقدمها ، وحرارة المناطق الاستوائية المرتفعة وما يحتاج تلك المناطق من أمراض لا تهيئ للحضارة أسبابها وهي بالتالي لا تستحث خُطاها .

(٣) العوامل الاقتصادية : ((تبدأ الحضارة في كوخ الفلاح ، ولكنها لا تزدهر إلا في المدن)) [قصة الحضارة ١/٥] قد يكون لشعب ما مؤسسات اجتماعية منظمة وتشريع خلقي رفيع تزدهر فيه صغريات الفنون لكنه إن ظل في مرحلة الصيد البدائية فإنه يستحيل أن يتحول من البدائية إلى الحضارة تحولاً تاماً . إن الإنسان لا يجد لحضارته (لتمدنه) فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر في مكان يَفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه .. ثم تراه يبني لنفسه الدُور والمعابد والمدارس ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج ويستأنس الحيوان ثم يتعلم كيف يعمل في

نظام واطراد وكيف يزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أمينا.

(٤) العوامل النفسية وهي التي تسرع في تقدم الحضارة ؛ فلابد أن يسود الناس نظام سياسي وحالة استقرار وربما اتفاق في العقائد الرئيسية وفي المثل الأعلى المنشود فكل هذا يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياة الإنسان أشرف وأخصب .

ولو انعدمت هذه العوامل أو واحد منها لجاز للحضارة أن يتقوص أساسها ؛ فالحضارة ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسان ولا هي شيء يستعصي على الفناء ، إنما هي شيء لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً فإذا ما حدث اضطراب خطير في عامل من العوامل السابقة فقد يكون عاملاً على فنائها[٢].

****

(١) الحضارة العربية الإسلامية : شوقي أبو خليل صـ١٨،١٧ـ بتصرف منشورات كلية الدعوة الإسلامية .

(٢)السابق نفسه : صـ٢٢،٢٠ ـ بتصرف .

٣ ـ اتصال الحضارات

يتم الاتصال بين الحضارات وبالتالي انتقالها بعدة طرق :
الغزو ، الفتح ، الحكم الأجنبي ، أو الهجرة والسياحة والتجارة والجوار .. ونميز في حالات الاتصال هذه نوعين رئيسين من انتقال الحضارة :

(١) إذا كان الشعب المهاجم في حالة بدائية تحصل فترة توقف في مسيرة الحضارة الأصلية كالهكسوس والبرابرة والتتر ..

ففي مثل هذه الحالات تهضم وتجرف حضارةُ المغلوب الغزاةَ المنتصرين وتردهم ـ ولو بعد حين ـ وقد اقتبسوا حضارة الشعوب المغلوبة .

(٢) أما إذا كان الشعب الفاتح في حال أرقى كالفاتحين العرب المسلمين ، فعندها تزدهر حضارة رائعة بعد الفتح والاستقرار مع طبع الحضارة بطابع الفاتحين الخاص . وقد يحصل تبادل حضاري بين طرفين حضاريين ، وقد يعطي الشعب المغلوب إلى الشعب الغالب أكثر مما يأخذ منه كالصليبين عندما وصلوا بلاد الشام واطلعوا على الحضارة العربية والإسلامية .

وقد يتم الانتقال أحياناً عن طريق طرف آخر ؛ فالحضارة العربية الإسلامية انتقلت إلى أوربا عن طريق المدن الإيطالية وصقلية والأندلس .

****

٤ ـ مظاهر الحضارة

للحضارة عناصر تتألف منها ومظاهر متعددة تظهر بها :

(١) المظهر السياسي : ويبحث في هيكل الحكم ونوع الحكومة ملكية أم جمهورية ، دستورية أم مطلقة .. والمؤسسات الإدارية والمحلية .

(٢) المظهر الاقتصادي : ويبحث في موارد الثروة ووسائل الإنتاج الزراعي والصناعي وتبادل المنتجات .

(٣) المظهر الاجتماعي : ويبحث في تكون المجتمع ونظمه وحياة الأسرة والمرأة ، وطبقات المجتمع .. والأخلاق .

(٤) المظهر الديني : ويبحث في المعتقدات الدينية والعبادات وعلاقة الإنسان بربه ونظرته إلى الكون والحياة .

(٥) المظهر الفكري : ويبحث في النتاج الفكري من فلسفة وعلم وأدب .

(٦) المظهر الفني : ويبحث في الفن المعماري والنحت والرسم والموسيقى.

** ** ** ** ** ** ** **

المبحث الثاني

١. الحضارة العربية في العصر الجاهلي .

٢. العادات العربية .

٣. الحياة الدينية .

٤. الحياة الثقافية

٥. الحياة الاجتماعية .

٦. الحياة الاقتصادية .

****

١ ـ الحضارة العربية في العصر الجاهلي

يقول غوستاف لوبون في كتابه العظيم ((حضارة العرب)) [١] :

((إذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة ثمرة ماضٍ طويل ، ولا يعنى جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده ، ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك ، فقد أثبتت الآثار والوثائق التي بأيدينا وجودها وأنها لم تكن ـ على ما يحتمل ـ دون حضارة الآشوريين وحضارة البابليين ... ويكفي أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية ، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم فاستطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ)) .

**

ـ بيئات حضارية في العصر الجاهلي :

نشأت بعض البيئات الحضارية في ذلك العصر في شبه جزيرة العرب في شمالها وشرقها وجنوبها ووسطها ، ونعني بها الإمارات أو الدويلات والممالك التي كونها

المناذرة والغساسنة في الشرق والشمال ، وقريش في مكة ، وكِندة في نجد ، واليمن في الجنوب .

فمنذ فترة قديمة من العصر الجاهلي أخذت بعض القبائل العربية الجنوبية تتجه إلى الشمال في موجات هجرة لتعيش عند ريف العراق أو مشارف الشام فتجمع بين حرية البادية ويُسر العيش في السواد أو القرى ، واستقر بعضها في وسط الجزيرة . ووقع العراق فيما بعد تحت النفوذ الفارسي كما وقع الشام في قبضة الروم ، واشتد الصراع بين نفوذي الدولتين الفارسية والرومية في هذين الإقليمين .

هذا فضلاً عن تعرضهما لغارات عديدة من القبائل العربية في البوادي المتاخمة لهما بقصد السلب والنهب، من أجل هذا رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقرأوا على التخوم يزرعون ويتحضرون ثم يكونوا ردءاً لهم يصدون غارات البدو الذين يغزون وينهبون فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس (المناذرة) وإمارة الغساسنة على تخوم الرومان .

ويهمنا هنا أن نشير إلى التأثير الحضاري لإمارة الحيرة في الحياة العربية والأدب العربي ؛ فقد كانت الحيرة بحكم مجاورتها للحضارة الفارسية واتصالها الوثيق بها أكثر تحضراً وأرقى فكراً من أكثر البيئات في الجزيرة العربية ... ويكفي أن نعلم أن كثيراً من شعراء الجزيرة وبخاصة من البادية قد وفدوا على هذه الإمارة مادحين أمراءها طامعين في جوائزهم متطلعين إلى الحياة في هذه البيئة التي كثر فيها الرخاء وشاع الثراء لما تهيأ لها من خصوبة الأرض ورواج التجارة .

**

. أهم معارف العرب في العصر الجاهلي :

كان لدى العرب في الجاهلية بعض المعارف ولعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة وكأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم .

ويلي هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعتها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : ((وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٢]

. حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشُقة . مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه (يعينه) ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً (منفرداً) وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليّ كل ليلة)) [٣] .

---

[١] صـ٨٧ ، ٨٨ ـ بتصرف .

[٢]الصحاصح:الأرض المستوية ، الأماليس:التي ليس بها ماء ولا شجر .

[٣]الحيوان : ٦/ ٣٠ طبعة الحلبي .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية.

وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفي من الكلب وأن عظام الميت تشفي من الجنون وأن روحاً شريرة تحل في المريض وكانوا يتداوون منها بالفرائم والرُّقي ... ومن أهم أطبائهم الحارث بن كَلدة . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل فقد عرفوا كثيراً عن حيواناتهم وخصائصها وعللها وأدوائها .

وكانت لهم عناية خاصة بالقيافة والفراسة وهي تتبع الأثر في الأرض والرمل ، ولهم في ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعي أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم في غيبتهم عن أحيائهم .

لكنهم في كل معارفهم ـ كما يرى الدكتور شوقي ضيف ـ كانوا بعيدين عن التسبيب العقلي فلا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً لأنهم كانوا في طور البداوة وكانوا لا يتعمقون في بحث الأشياء بل ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً ، يقفون عند الجزئيات ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحيونها : دائرة الحياة الفطرية الساذجة .

وشاعت عندهم الحكمة ولكن بمعنى الخبرة المحدودة التي تصورها عبارة من العبارات القصيرة ، فهي تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ووقوفه على طرقها المستقيمة التي تهدي سبيل الرشاد .

ومن أهم حكمائهم لقمان بن عاد والذي ذكر في القرآن الكريم ويقال أنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها في صحيفة تدعي مجلة لقمان ، ومنهم قُسُ بن ساعدة وقصي بن كلاب وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة [١]

. ومن علومهم الكهانة والعرافة : وهما القضاء بالغيب وربما خُصت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية وطريقهم في ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية لما بينهما من المشابهة الخفية أو المناسبة البعيدة أو الارتباط الدقيق ، ويحتاج صاحبهما إلى كثرة التجارب وحدة الذكاء وصدق الفراسة . ومن أشهر كهانهم : شِق أنمار ، وسطبح الذئبي وطريفة الخير وسلمى الهمدانية ، ومن أشهر عَرافيهم : الأبلق الأسدي ورباح بن عجلة .

. ومن علومهم الفراسة وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله وأراذله ولهم في ذلك نوادر شتى .

. ومن علومهم القيافة وهي الاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها أو الاهتداء بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه فقد كانوا يميزون بين أثر المرأة والرجل ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، والأحمق والكيّس ، وإذا نظروا في عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه والقريب بقريبه وعرفوا الأجنبي من بينهم ،ولا يزال هذا العلم باقياً عند عرب البوادي حتى الآن.

. ومن علومهم الزجر وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والاسترسال فيه ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كالمرقش الشاعر ولبيد بن أبي ربيعة ، ولذا يقول:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع[٢]

---

(١)العصر الجاهلي : د/ شوقي ضيف صـ٨٦ـ دار المعارف ط الحادية عشرة.

(٢) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه : صـ٤١،٤٠ـ .

٢ . العادات العربية

لا نجد حداً فاصلاً بين العادات والأعراف والدين ؛ فالأعراف عادة أقرها المجتمع ، والدين عادة سلكها الإنسان من أجل الاتصال بالله ، ومعنى الدين لغوياً : العادة (القاموس المحيط مادة دين) .

وقد ورد العرف في القرآن الكريم : قال تعالى في سورة الأعراف الآية ١٩٩ : ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) فالأمر بالعرف من أسمى معاني الدعوة الإسلامية .

ومما عرف به العرب في الجاهلية المروءة وهي كلمة جامعة لكل العادات العربية النبيلة ولعل ما يراد منها الآن كلمة العمل الإنساني ، ومن أنسب ما يقال في المروءة أنها هي ما يقدمه المرء للناس من عمل يعتز به ، فهي مرتبطة بالسمعة .

وقد اهتم الجاهلي كثيراً بأمر سمعته فكان العربي يتحاشى سوء الأحدوثة التي تصِم صاحبها بالعار ويندى لها جبينه بين أفراد قبيلته وقد جمعت المروءة عادات شتى هي أهم مناقب العرب مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العورات .

وقد اشتهر عندهم كثيرون بالكرم على رأسهم حاتم الطائي الذي ضربت الأمثال بكرمه الذي يصوره كثيراً في شعره :

إذا ما بخيل الناس هرَّت كلابُه

وشق على ضيف الغريب عقورها

فإني جبان الكلب بيتي موطأ

جواد إذا ما النفس شح ضميرها

كما كانوا لا يقدرون شيئاً كتقديرهم للوفاء ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه ، وجعلهم هذا يعظمون الأحلاف فلا ينقصونها مهما قاسوا بسببها من حروب ، وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا

يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم حتى يلحقوا به عار الأبد ، يقول الحادرة لصاحبته سمية :

أسميَ ويحك . هل سمعت بغدرة

رُفع اللواء لنا بها في مجمع ؟!

وضرب عندهم المثل في الوفاء بالسموأل الذي يروي أن امرأ القيس أودعه مائة درع فأتاه الحارث ليأخذها منه فتحصن منه السموأل فأخذ الحارث غلاماً له (ولداً له) وكان في الصيد وقال له : إما أن تسلم إليّ الدروع وإما أن أقتل ابنك ، فأبى السموأل تسليم الدروع فضرب الحارث الغلام بالسيف فقتله وفي ذلك قال السموأل :

وفيت بذمة الكندي إني

إذا ما ذم أقوام وفيتُ

وأوصي عادياً يوماً بألا

تهدم يا سموأل ما بنيت

بني لي عادياً حصناً حصيناً

وماء كلما شئت استقيت

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يمتدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة كما يمتدحون بالأنفة وإباء الضيم فلا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، كما كان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة بحكم حروبهم التي لا تني ولا تفتر ، فالعربي أبي النفس شجاع يؤثر الموت على الحياة الذليلة ، وها هو عنترة بن شداد يعبر عن نفسه ونفس مجتمعه فيقول :

لا تسقني ماء الحياة بذلة

بل اسقني بالعز كأس الحنظلِ

ماءُ الحياة بذلةٍ كجهنم

وجهنمٌ بالعز أطيبُ منزلِ !!

ويقول عمرو بن براقة بيت شعر هو شعار كل عربي :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

وفي بيئة تمرس أهلها على الأخلاق الكريمة واعتزوا بالإباء والمروءة وافتخروا بالشرف وحُسن الأحدوثة كان لابد للرجال والنساء من التعفف ولابد لهم من الغيرة على العرض لأن العدوان عليه يجر ويلات وحروباً طويلة .

والعفة عند العرب شرط من شروط السيادة كالشجاعة والكرم وهي أحد أسباب ثلاثة في تفضيل رجل على آخر ، ولذا كثر المدح بالعفة والفخر بها فهي حيلة الرجال الكرام والأبطال العظام كعنترة بن شداد الذي افتخر بأنه لم يراود أنثى عن نفسها بل يتزوجها من وليها وأنه يغض طرفه إن مرت به جارته حتى يواريها منزلها كما لا يغشى دور جيرانه إن سافر الرجال للغزو ، قال :

ما استمت أنثى نفسها في موطن

حتى أوفِّي مهرها مولاها

أغشى فتاة الحي عند حليلها

وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

أما عن عفة نساءهم فقد كانت مثلاً أعلى ، يقول علقمة بن عبدة :

منعمة ما يستطاع كلامها

على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب فيها البعل لم تفش سره

وترضي إياب البعل حين يثوب

فالعفة طبيعة فيها ولا سبيل إلى محادثتها وليست بحاجة إلى رقيب على بابها فهي تراقب نفسها .

****

٣ . الحياة الدينية

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة ، ويتجسد هذا بطقوس وعبادات يستمسك بها ، وهو يتوقف على عقلية الناس وحالة الأفراد ففي القديم كان فهم الناس لمسببات الحوادث يختلف عن فهمنا اليوم ؛ فلم يكن الدين عملاً فردياً أو محاولة شخصية لإظهار الروح الإنسانية بل هو عملية حية متبادلة بين الإنسان والقوى فوق الطبيعة ، والأديان القديمة غالباً هي إجماعية تتعلق بالقبيلة كلها فالإله هو للقبيلة يحميها ويشملها برعايته.

. وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان فكانوا يتعبدون الأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ، كما دخلت عبادة النجوم والكواكب عندهم من قديم وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين كما جاءتهم من قبل عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس هو القمر أو وَد والشمس أو اللات والزهرة أو العُزَّى ((أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ،.... إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)) النجم٢٣،٢٠،١٩ .

((وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)) النمل: ٢٤

ونراهم يقدسون النار ويقال إن المجوسية كانت منتشرة في تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية والمجوس ثنوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ومن أصنامهم مناة ـ كما سبق ـ وهي صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة وهي إلهة القضاء والقدر وكانت معظمة عند هذيل وفزاعة والعرب جميعاً خاصة الأوس والخزرج .

و وَد كان صنمه بدومة الجندل وكل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام .

وكان سُواع صنم هذيل وكنانة وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مُضر وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك .

وفي الطبرسي : ((كان وَد على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير))[١]

ووراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ويقال إنه كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ، ومن أصنام قريش المشهورة هبل وإساف ونائلة ومناف

(١) السابق نفسه صـ٩٠ ،٩١ ـ .

اليهودية والنصرانية:

عرفت اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وقد اختار اليهود المواطن التي تتناسب مع تجارتهم غير مهتمين بالدعاية لدينهم وكل ما يهمهم المحافظة على الحياة وعلى التجارة التي تعود عليهم بالمال الغزير ولذا حاربوا النصارى في اليمن لما وجدوا فيهم خطراً يتهدد مصالحهم وذلك في أوائل القرن السادس الميلادي فاستطاعوا أن يؤثروا على ملك من ملوك التبابعة هو ذو نُواس وأدخلوه في دينهم ودفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : ((قُتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد))

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل وقد نزل بينهم الأوس والخزرج ففرضتا سيطرتهما عليهم ، وكانوا يشتغلون بالزراعة والصباغة والحدادة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة .

وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون بينهم في دار ندوة لهم تسمى ((المدارس)) وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشْنة والزبور (مزاميز داود) بلغتهم العبرية القديمة ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً .

أما النصرانية فقد انتشرت في اليمن وشمالي الجزيرة الغربي والشرقي ويُظن أن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي ، وكان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار والذين لونت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلويناً تاماً .

وليس من شك أيضاً في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سينا حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب النصرانية.
أما اليهود فلم ينشروا بين العرب أية ثقافة دينية أو خلقية . أما النصرانية فقد انتشرت بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُذام وكلب وقضاعة وبين عرب العراق مثل تغلب وإياد وبكر وتغلغلت النصرانية في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها العِباديون الذين سُموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين فهم عباد الله .
وكان الرقيق الحبشي في مكة نصرانياً ويظن أنه كان بها جالية من الوم النصارى ، ويزعم اليعقوبي أن قوماً تنصروا من قريش قبل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويدث ولعل في ذلك ما يبرر وجود جماعة المتحنفين (الأحناف) وتسرب فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين .

. الحنيفية :

يعني المسلمون بالحنفاء من كانوا على دين إبراهيم من الجاهليين فلم يشركوا بربهم أحداً ولم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ولم يقبلوا بعبادة الأصنام ديناً بل سفهوا تلك العبادة وسفهوا رأي القائلين بها فالحنيفية بذلك تدل على دين التوحيد فورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة يدعو المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد وزيد بن عمرو بن نفيل يعتزل الشرك بالله والنابغة الجعدي يحمد الله الذي لا شريك له ، وكان أكثر العرب من قحطان وعدنان على هذا الدين يعبدون الله جل جلاله وحده ولا ينتقصونه حتى جاء عمرو بن لحي فأفسد العرب ونشر بينهم عبادة الأصنام الضالة وذلك بما تعلمه من وثني الشام حين زارهم فوزع الأصنام بين القبائل ودعا إلى عبادتها وظل الوضع كذلك حتى جاء الإسلام فدعا إلى دين إبراهيم من جديد.

الوظائف الدينية :

كانت مكة مركزاً دينياً هاماً يحج إليها سنوياً عدد كبير من الناس وهذا ما دعا إلى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج وهي بالتالي تتطلب عدة مقومات لابد منها كالمال للقيام بالخدمات والمهارة في العمل لتيسير الأمور والسلوك الحسن لكسب رضى الحجاج وتشجيعهم على العودة .

ومن أهم تلك الوظائف :

١. الحجابة : القائم بالحجابة كان يمتلك مفاتيح الكعبة فيأذن للناس بالدخول إليها ولا يشترط أن يكون عالماً في أصول الدين ، وكل ما في الأمر أنها كانت مصدر رزق للقائمين بها ، أخذها قصي بن خزاعة ثم صارت لولده عبد الدار من بعده .

٢. عمارة البيت : وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى ((أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله)) وكانت السقاية والعمارة للعباس الذي كان يمزج الماء بالزبيب حتى يطيب .

٣. السقاية : هي وظيفة هامة في بلد يشبه مكة يقل فيه الماء العذب الصالح للشرب ، وكانت تتم في حياض من جلد توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة وتملأ بالماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحاج ومثل هذه الوظيفة في ذلك الوقت تدر أرباحاً هائلة على أهلها وبصورة خاصة أهل مكة .

٤. الرفادة : وهي خرج تنفقه قريش كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب الذي كان يصنع منه طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن له سعة من الذين يحضرون الموسم ، وكان هذا الخرج أو الضريبة تصاعدية تبعاً لثروة الدافعين حتى إنهم قالوا أنها وصلت إلى مائة دينار . وكانت وظيفة الرفادة لبني عبد الدار ثم أخذها منهم هاشم . ومن مصادر موارد الرفادة أيضاً ضريبة العشور على السلع التجارية وقد يعفى

منها البعض لظروف خاصة ، والعطايا التي كانت تقدم للكعبة على سبيل الهبة وكانت تودع في بني سهم .

٥. النسيء : وظيفة دينية أخرى يعلن فيها القائم عليها الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال لضرورة التنقل في الطرقات البرية وممارسة التجارات وكل موارد العيش والأشهر الحرم في قريش هي : ذو القعدة و ذو الحجة والمحرم وصفر ، وقد أشار إليها القرآن الكريم بقوله ((إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرُم)) ومما يظهر أن قريشاً كان له دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الشهور ما عدا بعض القبائل التي لم ترع حرمة هذه الشهور كخثعم وطيء . ومما هو معلوم أن العرب كانوا يستعملون الأشهر القمرية وهذه تختلف اختلافاً واضحاً عن الأشهر الشمسية ، لذلك كان اعتمادهم عليها يخل بأمور التجارة عندهم التي كانت تجري حسب فصول السنة لذلك كانت العرب تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء أي أنه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتوافق السنة القمرية مع السنة الشمسية وهذا لابد من أو يؤدي إلى تغيير في الأشهر الحرم وكان المختص بالنسيء هو الذي يعين الشهر المضاف ، وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الإسلام فحرمه ((إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين)).

****

٤ ـ الحياة الثقافية

عرف العرب الشماليون نمط الخط النبطي وتطوروا به إلى الخط العربي ، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقش الأكبر :

الدار قفر والرسوم كما
رقّش في ظهر الأديم قلم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة ، ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي :

لابنة حِطان بن عوفٍ منازلٌ
كمارقش العنوان في الرِقِّ كاتب

ويدور هذا التشبيه كثيراً في أشعارهم مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ـ كما يقول الرواة ـ كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الأيادي وعدي بن زيد العبادي ، ومما لاشك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة التاجرة ، وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن يعلم الأسيرُ منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة وكان من يكتبون بين يديه الوحي وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين . وليس بين أيدينا ما يدل على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم فربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ؛ فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعر في حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك في الإسلام بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آياته وتحول جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون ...

وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، وإنما كانت رواية الشعر هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه .

. أما عن الشعر فقد كان العرب أشعر الساميين فطرة وأبلغهم على شعر قدرة لاتساع لغتهم للقول وملائمة بيئتهم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسذاجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم ، وكمال حريتهم ، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ويعوق الذهن عن التفكر ، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة ، وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة وطباع ثائرة ، يستفزهم الرغب والرهب ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم وسجل وقائعهم وسيرهم وشاهد صوابهم وخطئهم ومادة حوارهم وسمرهم وكان معظمهم يروونه وجلهم يقرضوونه عفوو البديهة وفيض الخاطر حتى روي عنهم من الشعر الوجداني ما لم يُرو عن أمة من أمم الأرض مثله ، فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم ، والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم كحديث الأعشى مع المحلّق وحسان مع بني بن عبد المدان والحطيئة مع بني أنف الناقة وقد رووا أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وأن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب فهو أول من رويت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً ، وتبعه الشعراء مثل امرئ القيس وعلقمة وعبيد ممن أخرجوا لنا الشعر العربي في صورته الحاضرة .

وما أربى العرب على غيرهم في قول الشعر إلا لأنهم قوم أميون لم يرجعوا في تدوين حكمتهم وتخليد مآثرهم إلى رقم في رِق أن نقر في حجر فكسبهم ذلك التأنق في

الكلام وجودة الحفظ ومعاناة الرواية فاتخذوه ديوان علمهم ومنتهم حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون وأحلوه من الاعتبار في الغاية ومن الرعاية في الذروة ، وكانت القبيلة يرفعها البيت من الشعر ويخفضها الآخر .

. ومن أهم أغراض الشعر عندهم :

لما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل وتفنن ما شاء له الحب التشبيب والغزل ؛ فالشعر العربي غنائي محض لا يعني الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه والتعبير عن شعوره وحسه والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة ، ومن ثم نشأ فيه التكرار وتوارد الخواطر والسرقة ووحدة الأسلوب وتشابه الأثر وكان من الحق أن يقول زهير :

. ما أرانا نقول إلا معارا

أو معاداً من لفظنا مكرورا

أما الشعر القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه لأن مزاولتهما تقتضي الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتحال ، وتطلب الإلمام بطبائع النفوس ، وقد شغلوا أنفسهم عن النظر فيما عداهم ، وتفتقر إلى التحليل والتطويل وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث ، وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة وحرمتهم طبيعة أرضهم وبساطة دينهم وضيق خيالهم كثرة الأساطير وهي من أغرز ينابيع الشعر القصصي ، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر

الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان ، والاينياد للرومان ومهاباراته للهنود والشاهنامة للفرس [١] .

. وشعراء الجاهلية أكثر من أن يُحاط بهم ومن جُهل منهم أكثر مما عُرف ، وإنما اشتهر بعضهم دون بعض لنبوغه أو كثرة المروي من شعره أو قرب عهده بالإسلام زمنِ الرواية أو تعصب عشيرته له أو عظم جاهه أو اشتهاره بمنقبة أخرى فوق الشعر كالشجاعة والكرم والوفاء أو اشتراكه بشعره في حادث عظيم ، وهم بعدُ متفاوتون في القول قلة وكثرة ، ورداءة وإجادة ، وجفاء ورقة ، وروية وارتجالاً .

وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة وحكم نافذ وسلطان غالب إذ كانوا ألسنتهم الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم ، وأسلحتهم التي يذدون بها عن حياض شرفهم ، وبهم كانوا يماجدون وينافرون ويفاخرون وما كانوا يسرون بشيء أعظم من سرورهم بشاعر ينبغ فيهم ، قال ابن رشيق في العمدة : (وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر[٢] ، كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن حياضهم وتخليد لمفاخرهم وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج) .

ومن أنبغ شعرائهم امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد وعنترة بن شداد ولبيد بن ربيعة وعبيد ابن الأبرص والحارث بن حلزة والمرقش الأكبر وأعشى قيس .... وغيرهم .

. وأما الخطابة فهي كالشعر لُحمتها الخيال وسُداها البلاغة ، وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية وسبيل من سبل التأثير والإقناع ، تحتاج إلى ذلاقة اللسان ونصاعة البيان وأناقة اللهجة وطلاقة البديهة ، والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء وأولو غيرة ونجدة فكان لهم فيها القدم السابقة والفِدْح المعلَّى ، وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ونِجارها والذود عن شرفها وذمارها وإصلاح

ذات البين بين الحيين والسفارة بين رؤوس القبائل وأقيالهم أو بين الملوك وعمالهم ، وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة ، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها وشاعر يرفع ذكرها وربما اجتمع الصفتان في واحد.

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ خلاب العبارة واضح المنهج قصير السجع كثير الأمثال ، وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذيع .

ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة ورفع اليد ووضعها والاستعانة على العبارة بالإشارة واتخاذ المخاصر بأيديهم والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها .

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة جهير الصوت سليم المنطق ثبت الجنان ، وأشهر خطبائهم قس بن ساعدة الأيادي وعمرو بن كلثوم التغلبي وأكثم بن صيفي التميمي وقيس بن زهير العبسي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي .

.كما أن للعرب أمثالاً معروفة تميز نثرهم بها ، ونجد الأستاذ محمد رضا الشبيبي في تقديمه لكتاب الأمثال البغدادية للشيخ جلال الحنفي يعرف الأمثال فيقول : ((الأمثال في كل قوم خلاصة تجارهم ومحصول خبرتهم ... والمثل يتميز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة ، والأمثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال ، ومن هنا تتميز الأمثال عن الأقاويل الشعرية))[٣] .

وأما الأمثال العربية القديمة التي روتها كتب الأمثال فتنقسم إلى نوعين : النوع الأول وهو تلك الحكم المأثورة عن شعراء العرب وحكمائهم وتحرص كتب الأمثال على

---

[١] تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات : صـ٣٢،٣١ـ ط الرابعة والعشرون .

[٢] المزاهر : المزهر كالمنبر العود يُضرب به .

[٣] أشكال التعبير في الأدب الشعبي: دكتورة نبيلة إبراهيم صـ١٧٤. بتصرف .

أن ترجعها إلى قائلها مثل القول المأثور : ((رضيت من الغنيمة بالإياب)) ويرجع هذا القول إلى امرئ القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى

رضيت من الغنيمة بالإياب

أما النوع الأخر من الأمثال فهو ما يشير إلى حوادث بعينها ويحتفظ بشواهد لهذه الحوادث ثم يصبح بعد ذلك أمثالاً جارية تنسى مناسباتها الأصلية . وهذا النوع بعيد في جوهره عن المثل الشعبي والذهني إذ لا يشير إلى خلاصة تجربة من تجارب الحياة وإنما يشير إلى اتفاق مناسبتين في تفاصيلهما [١] .

ومن أمثلة الأمثال العربية الشهيرة :

- إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً : يُضرب للمل بنفسه إذا مُنى بمن هو أدهى منه .
- إنك لا تجني من الشوك العنب : أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً .
- رمتني بدائها وانسلَّت : يضرب لمن يُعيِّر الآخر بما يُعيَّر به هو .
- أحشفاً وسوء كيلة ؟.. : يُضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .

وهناك حكم عربية كذلك[٢] مثل قولهم :

- مصارع الرجال تحت بروق الطمع .
- كلْم اللسان أنكى من كلْم السِنان .
- العتاب قبل العقاب .
- التوبة تغسل الحوبة .
- أول الحزم مشورة .
- من ضاق صدره اتسع لسانه .
- مِن مأمنه يُؤتى الحذر .

. ومن النثر العربي المأثور كذلك نجد تراثاً قيماً يشير إلى البلاغة العربية القديمة والمنتشرة على شكل وصايا بين عامة البدو ومن ذلك وصية زهير بن جناب الكلبي لبنيه إذ يقول : ((يا بني قد كبرت سني ، وبلغت حرصاً من دهري ، فأحكمتني التجارب ، والأمور تجربة واختيار ، فاحفظوا عنى ما أقول وعوه ، إياكم والحور[٣] عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقعوها ؛ فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة ، فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابد أن يصيبه[٤])) .

. أما عن القصص فكما يقول الأستاذ / أحمد أمين في كتابه ((فجر الإسلام)) : ((كان للعرب قصص وهو باب كبير من أبواب أدبهم وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم وهذا القصص في الجاهلية أنواع منها :

- أيام العرب وهي تدور هو الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل كيوم داحس والغبراء ويوم الفِجار ويوم الكُلاب ، قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا)) ...
- أحاديث الهوى : وهذا كثير في كتب الأدب .
- قصص أخرى كثيرة عن الفرس كان العرب يروونها ويتسامرون بها كالنضر بن الحارث الذي كان يروي لقريش أساطير الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار .

---

[١] السابق نفسه صـ١٨٣ـ .

[٢] يقصد بالحكم النوع الأول من الأمثال الوارد ذكرها كقول امرئ القيس السابق .

[٣] الحور عند المصائب : التحير عند المصائب .

[٤] تاريخ الأدب العربي : صـ٢٦ـ .

٥ . الحياة الاجتماعية

فرضت طبيعة البيئة الصحراوية على سكانها البدو لوناً خاصاً من الاجتماع يقوم أساساً على رباط الدم والنسب .. وهذه الجماعة تعرف بالقبيلة .

والقبيلة الواحدة كانت مقسمة إلى عمائر ، كل عمارة تضم عدة بطون ، وكل بطن يشمل عدة أفخاذ ، والفخذ ينقسم إلى عشائر والعشيرة إلى أسر ، والأسرة تتكون من عدة أفراد ، فإذا اجتمعت عدة أسر من قبيلة واحدة في مكان واحد عرفوا باسم الحي أو القوم .

وقد تتضخم القبيلة وتتشعب إلى فروع يتمتع كل منها بوجود مستقل ولا تتحد إلا في الظروف غير العادية كالاشتراك في الدفاع عن القبيلة مثلاً ، وقد تتشعب بطون القبيلة الواحدة ويكثر أفرادها فتستقل هذه البطون عن قبيلتها وتصبح قبائل تتنافس على الشرف والرياسة .

وتتألف القبيلة من طبقات ثلاث :

١. أبناؤها المرتبطون برباط الدم .

٢. الموالي : من عتقائها أو من أبناء القبائل الأخرى المجتمعون بها فصاروا كأبنائها

٣. العبيد المجلوبون من البلاد الأجنبية وبخاصة الحبشة .

والقبيلة أيضاً وحدة سياسية مستقلة تخضع لسلطة أدبية ممثلة في زعماء العشائر ورؤوس الأسر وهؤلاء يقدمون واحداً منهم يعدونه شيخ القبيلة تتوفر فيه أكثر من غيره صفات الزعامة والرياسة التي يتطلبها المجتمع القبلي من الشجاعة والكرم والحلم وكثرة الأنصار والثروة ورجاحة العقل والإخلاص والوفاء وغيرها من الصفات التي يشيدون بها في قصائدهم وبطولاتهم ومآثرهم .

والقبيلة تظل مسؤولة عن حماية كل فرد من أفرادها ورعايته والثأر له إذا قتل وتنصره ظالماً أو مظلوماً ما لم يخرج عن عرفها أو يتحدى رغبتها وإرادتها فإذا اعتاد أموراً لا تقره عليها أعلن القوم براءتهم منه وطردوه وأعلنوا ذلك في الناس ليُعرف فلا تؤاخَذ

قبيلته بما يرتكبه من حماقات أو جرائم ويسمى حينئذ خليعاً ، ويعكس شعر طرفة بن العبد موقفاً كهذا في قوله :

ومازال تَشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها
وأُفردت إفراد البعير المعَبَّدِ

وقد تجلت العصبية القبلية في البدوي بصورة عميقة حيث يعتز بالانتساب لقبيلته ولا يتسامح في أي واجب تفرضه العصبية القبلية ولو كلفه ذلك حياته وماله ، يقول دُريد بن الصُمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد [١]

وقد تدفع قلة الماء والكلأ القبيلة إلى الإغارة على القبائل المجاورة للسلب والنهب ولو كانت هذه القبائل يجمعها بها أصل واحد فتسيل الدماء ويسقط القتلى وقد تلد المعركة معارك أخرى طلباً للثأر وانتقاماً لمال غُصب أو محواً لعار هزيمة سبقت ، وهكذا كانت حياتهم سلسلة من المعارك التي تنوعت أسبابها وكثرت أيامها مما جعل العلاقة بين القبائل توشك أن تكون دموية الطابع في أغلب الأحيان .

وقد تلجأ القبيلة إلى التحالف مع غيرها من القبائل القوية فتهابها القبائل الأخرى فيقف أفراد القبيلتين بجوار بعضهم البعض في الشدة ويشاركه في البأساء والضراء والسراء ولكل فرد من أفراد هذا الحلف ما لحليفه من الحقوق وعليه ما عليه من الواجبات .

---

[١] أمراء الشعر في العصر الجاهلي : د/ صلاح الدين الهادي دار الثقافة العربية صـ١٢.١٨ـ بتصرف .

المعيشة :

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ؛ فقد عُرفت الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرُى ، وعاش أهل مكة على التجارة إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضي البحر المتوسط والمحيط الهندي ، فمكة في الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة وكان بها الكعبة أكبر معابد حينئذ فكانوا يحجون لأصنامهم وأوثانهم فيها وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ وكانت أكبر أسواقهم وكانوا يقيمونها في نجد بالقرب من عرفات من منتصف ذي القعدة إلى نهايته ولم تكن سوق تجارة فحسب بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً .

وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُس بن ساعدة وهو يخطب في الناس وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قبه ويفد عليها الشعراء يعرضون أشعارهم فمن أشاد به طار اسمه ، وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتُدفع الديات وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ويذكر في هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس ، ومعنى ذلك أن عكاظ كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب . ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ وكانت تظل منعقدة إلى نهاية الحج .

ووراء المجتمع المكي كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفوذ وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعي الأغنام والأنعام وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي لا تُحد .

وهي حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً فقليل من الشعير يكفيهم وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه في وسطه منطقة وقد تلفه عباءة وغطاء للرأس يمسكه عقال .

لكنها لم تكن حياة سهلة ؛ فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوي ورياح السموم وفيها حنادس[١] الليل المظلم المخيف التي كانت تلقي في روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السعالي والجن والغيلان .

بالإضافة ـ كما سبق ـ إلى أنهم كانوا يعيشون حياة دامية فكاد أن لا يكون هناك حي أو عشيرة بل أسرة إلا وهي واترة موتورة .

وكان معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعي للأنعام والأغنام فتلك موراد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساويين في هذا الرزق فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً ، وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون [٢] ... وهذه هي حياتهم .

****

[١] حنادس : ثلاث ليال من كل شهر مظلمات .

[٢] العصر الجاهلي : صـ٧٦ ـ وما بعدها بتصرف .

٦ . الحياة الاقتصادية

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة بل عرفت الزراعة مثلاً في الجوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرُى .

ففي المناطق التي توافرت فيها المياه ازدهرت الزراعة وكانت الطائف من أشهر المدن الزراعية في الحجاز.

تقع الحجاز على بعد خمسة وسبعين ميلاً جنوب شرق مكة وهي أرض مرتفعة ذات مناخ طيف ولطيف في الصيف فيه زرع وضرع وخير جادت به الطبيعة على أهله لذلك اتخذه أهل مكة مصيفاً لهم هرباً من لهيب مكة .

والطائف تقع على ظهر جبل غزوان وهو أبرد مكان في الحجاز فيها الكثير من الشجر والثمر وأشهرها الكرمة والرمان وهي تمون مكة بالفواكه والبقول .

وقد استورد أهل الطائف أشجاراً من بلاد الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها .

ومن أهم قبائلها ثقيف ، فاقوا غيرهم في الزراعة والبناء والحرف اليدوية وعاشوا في مستوى أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ، فقد رزقوا فواكه أكلوا منها وجففوا بعضاً منها مثل (الزبيب) وأكلوا وصدّروا منه ما زاد عن حاجتهم .

أما أهل مكة فقد عاشوا على التجارة إذ كانوا يحملون عُروضها بين حوضي المحيط الهندي والبحر والمتوسط وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً في طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً في طريقين معروفين: طريق إلى الخليج الفارسي من شرق مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالاً إلى خيبر ثم يخترقون الصحراء في وادي الرُّمة ومنه يهبطون إلى الحيرة وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء يحمونهم الضلال في مجاهل الصحراء كما كان يصحبهم خفراء يحملون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا السلب والنهب ، وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية اللُّبان والطِيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق

إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بني سليم الذهب ، كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية .

ويعود الفضل في ازدهار مكة لموقعها الجغرافي ؛ فهي عقدة تتجمع فيها القوافل التي ترد من جنوب الجزيرة تبغي بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام إلى جنوب الجزيرة ، وبلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين في العام : رحلة الشتاء في اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة : فكان هاشم يتوجه إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون في هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء .

وقد أفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية وحضارية على جانب كبير من الأهمية فقد خالطوا أقواماً من ذوي المدنيات القديمة كالروم والفرس والهند واكتسبوا منهم عرفة غنية أثّرت كبير الأثر في تثقيف عقولهم ورقي مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات ، إلى جانب هذا أتقنوا علم الكتابة والقراءة والحساب والمكاييل والموازين لهذا كله حسنت إدارتهم للكعبة وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج إلى بلدهم وقد ظهرت آثار ذلك بعد الفتوح الإسلامية .

كما عمل أهل يثرب بالتجارة فخرجوا إلى أسواق الشام يتجرون بها وكان يهود يثرب يتاجرون أيضاً ويأتون إلى أهل يثرب عامة بكل ما يحتاجون إليه من حاجات كما كان ينزل المدينة قوم يسمون بالساقطة يجلبون إلى أهل يثرب كل ما يحتاجون إليه من البُر والشعير والزيت والتين والقماش وما يكون في بلاد الشام .

أسواق العرب في الجاهلية :

كان العرب في العصر الجاهلي يقيمون أسواقاً عامة للتجارة منها ما كان ثابتاً ومنها ما كان موسمياً ، وقد أثرت هذه الأسواق تأثيراً بعيداً في جميع الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، واهتم بها الرواة والإخباريون فأوردوا الكثير من الأخبار والخطب التي ألقيت في هذه الأسواق .

ومن أهم تلك الأسواق سوق عكاظ وكانت أكبر أسواقهم وكانوا يقيمونها في نجد بالقرب من عرفات من منتصف ذي القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوق تجارة فحسب بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُس بن ساعدة وهو يخطب في الناس ، وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم فمن أشاد به طار اسمه ، وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتُدفع الديات فكانت عكاظ أشبه بمؤتمر كبير للعرب فيه يجتمعون وينظرون في خصوماتهم ومنازعاتهم وكل ما يتصل بهم من شؤون .

ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل منعقدة حتى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دومة الجندل في شمالي نجد ، وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجر باليمامة وسوق المشعِّر بتهجر وسوق حضر موت وسوق صنعاء وعدن ونجران ، وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تُعقد فيه .

أما البدو سكان الصحراء في تهامة ونجد وصحراء النفوذ وبوادي الشام والدهناء والبحرين فقد اعتمدوا على رعي الأغنام والأنعام وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة بل يحتقرونهما فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي تُحدّ .

خاتـمـة

أظن أنني بحديثي السابق قد بينت ملامح حضارية للعرب في الجزيرة قبل الإسلام ، وبهذا يتضح أن التاريخ لم يكن صامتاً إزاء حضارة العرب .كما يقول غوستاف لوبون . ويكفي لتمثل تلك الحضارة أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم آداب ناضجة ولغة راقية وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم فاستطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ .

كان هذا هو الجزء الأول من هذا الكتاب ((صور حضارية من تراثنا العربي)) ويلحقه بإذن الله الجزء الثاني وهو ((صور حضارية من تراثنا العربي الإسلامي)) .

وبالله التوفيق.

ا . هـ .

السبت ١٥ / ٣ /٢٠٠٨ م

٧ / ربيع الأول / ١٤٢٩ هـ

-

-

قيم حضارية من تراثنا

سمية عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)) النور: ٥٥

. ((يجب أن نبذل جهداً كبيراً لإعادة تقييم مُجمل علاقاتنا الاجتماعية ومشاكلنا الاقتصادية والسياسية من خلال منظار الوحي القرآني)) .

*روجيه جارودي .

. ((أرى واجباً أن يُدعى النبي محمد منقذ الإنسانية ، وأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى زعامة العالم الحديث ؛ لنجح في حلّ مشكلات هذا العالم ، وأحلّ فيه السلام والسعادة)) .

*جورج برنارد شو .

تقديم :

لاشك أن المسلمين اليوم يئنون تحت وطأة التخلف والاستعمار الفكري والذوبان العجيب في الشخصية الغربية المستبدة بكل ما تطويه من أبجديات الانحلال والتخلف الخُلقي والعقائدي ، حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخله وراءهم الكثير من المسلمين الذين نسوا جذورهم واقتلعوا هويتهم من حياتهم وضربوا بتاريخ قرون عَرَضَ الحائط ، ظانين أن كل دورهم في الحياة إنما ينحصر في الإتباع والتقليد لقومٍ أضاعوا دنياهم وخسروا آخرتهم بنسيانهم لخالقهم وكفرهم بربهم ، وما هذا الجهل الذي يعانيه الكثير من المسلمين إلا نتيجة لهذا الإتباع الأعمى الأصم ، ونتيجة للتهافت على كل المظاهر الحضارية الزائفة الخادعة ((يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب)) النور : ٣٩

وما تزال الدنيا تدور بأهلها والمسلمون كذلك يدورون في دائرة مغلقة من الشهوات والمصالح والحروب والصراعات الداخلية ـ إلا من رحم الله ـ غافلين كما يُكاد لهم ويدبر ، منشغلين بالقليل الزائل عن الكثير الباقي ، يائسين من أي تغيير على خارطتهم المعاصرة بعد أن باتوا محاصرين من الداخل والخارج !!

لكنَّ الأمل موجود حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، والدليل على وجود الأمل وحتميته وضرورة القلب الجذري لأوضاع المسلمين ظهور فئة كبيرة من المتيقظين الذين اكتووا دهوراً بنار الجهل والغفلة والانكباب على التوافه والسلبية في مواجهة كل التيارات المعادية للإسلام ، ظهرت تلك الفئة الراشدة بعد غياب طويل على أيدي على الدعاة الذين اختصهم الله بنشر هذا الدين العظيم ، ظهرت تلك الفئة من الشباب المسلم ليعيدوا كتابة تاريخ الإسلام وليرفعوا عن أعين الغافلين الغشاوة ، ومعهم بزغ فجر جديد يبشر بصحوة إسلامية تبين للمسلمين أن واقعهم المرير لن يستمر ، وتزيل الضباب عن حضارتهم الفائتة ليكشف لهم عن قيم حضارية ذات

جذور متينة قوية نبتت في أرض الإسلام وترعرعت تحت سمائه ورويت من ماء أخلاقه ومبادئه ، حضارة حقيقية ثابتة شامخة شموخ الجبال الراسيات ليست كتلك الحضارة الغربية الزائفة والتي هي في طريقها إلى الزوال ((أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمّن أسس بنيانه على شفا جُرفٍ هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين)) التوبة : ١٠٩.

إن رسالة الإسلام التي اختص الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم من دون سائر النبيين والمرسلين هي أعظم الرسالات على الإطلاق ، شملت قومه وشملت غير قومه من ساكني المعمورة ، هم وذراريهم وأعقابهم وأعقاب أعقابهم إلى يوم الساعة ، فمن اتبعه نجا ومن عصاه ضل وغوى .

وعلى أساسٍ متين من تلك الرسالة الخالدة نشأت حضارة إسلامية عربية خالدة بعد أن كان الناس في فوضوية دينية وخلقية ، واجتماعية وسياسية ونظامية ، وفي تدهور عام وذعر شامل في جو من إتيان المنكرات واستباحة الأموال والنساء ، مع تشعب الخلافات المذهبية الدينية في الفرس والروم مملكتي الحضارة آنذاك وعلى هذا النمط كانت الهند والحبشة واليونان والصين بل وفي إيران وبلاد الساسان ، لقد قامت في كل تلك البلاد حضارات في القديم لكنها تداعت بعد حين وسقطت لأنها قامت أول ما قامت على أساس من الدنيا لا من الدين الخالص لله ، فالعزة جاءت للعرب من الإسلام فقد كانوا قبله أمة غوغائية تعيش جاهلية كبرى تتداعي عليهم الأمم والممالك ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، فالعودة لجذورنا الحضارية في الحقيقة عودة لديننا ولمبادئه وتعاليمه وإلا فسنظل على حالة الضياع والتخلف دون أملٍ في أي تغيير !!

(١)

فجر جديد

((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) الصف:٩

. إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، فإنه على أميته استطاع قبل

بضعة عشر قرناً من الزمان ، أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيون أسعد ما نكون

لو وصلنا إليه بعد ألفي سنة)) .

عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا : سيزل

****** ****** ******

الدعوة المحمدية وميلاد الحضارة الحقيقية :

رأى الكثيرون أنه لا وجود لتاريخ عربي قبل ظهور الدعوة المحمدية، لكنه رأى فيه الكثير من الإجحاف ، فإنه لا يتم تطور الأشخاص والأمم إلا بالتدريج ، وإذا ما ظهرت حضارة في أمة من الأمم على خارطة العالم فلابد أن يكون ذلك الظهور ثمرة ماض طويل من العمل والكفاح .

وقد دلت الأبحاث الجيولوجية في طبقات الأرض على تماثل الأمم في وجود بقايا من العصر الحجري ، وما بعده من عصور ، ودلت الأحداث التاريخية في جزيرة العرب على ما رواه مؤلفو اليونان واللاتين عن عظمة بلاد اليمن ، وأنها كانت مقراً لأقوى دول الأرض وأن حكم ملوكها استمر ثلاثة آلاف سنة وأنها غزت الهند والصين ومّراكش .

بل لقد كان للعرب في الشام والعراق من المناذرة والغساسنة وما جاورهما من قبائل متاخمة دورٌ هام في الحروب التي وقعت بين الفرس والروم ، ولما صارت القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية نازع العرب الفرس والإغريق سيادة الفرات ، وكان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس وقياصرة الروم في الترف والعظمة وعاشت دولة الحيرة أربعمائة سنة ، حتى خضعت سنة ٦٠٥ م للدولة الساسانية ، وظلت فارسية الحكم حتى جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ودكّ خلفاؤه دولة الأكاسرة واستولوا على بلاد الفرس ، بل وبلاد الروم في الشام .

وقبل البعثة كان لعرب الجزيرة باع طويل في التجارة حتى إنهم كانوا واسطة بين قدماء الأوربيين وبقاع الشرق القاصية ، ولم تقتصر تجارتهم على منتجات بلادهم بل كانت تشمل السلع التي كانوا يجلبونها من إفريقية والهند من النفائس كالعاج والعطور والتبر والأرقاء والحجارة الكريمة .

كما اختلفت أديان العرب في الجزيرة فكانوا يعبدون الشمس والأصنام ، ووجد في ثنايا تلك العبادات المختلفة بذور توحيد ، وقد بنى إبراهيم الخليل عليه السلام

الكعبة في جزيرة العرب وجعل العرب منها موضع تكريم وحج منذ القديم ، وكانت سدانتها بيد قبيلة قريش التي نالت بذلك نوعاً من السيادة الدينية بين العرب ، كما انتشر اليهود والنصارى في الجزيرة ، ووُجد الحنفاء وهم الذين اعترفوا بوجود إلهٍ واحدٍ .. وكل هذا كان إرهاصاً وإيذاناً بميلاد دين جديد يقوم على التوحيد الخالص ، وبهذا حلّ ميعاد البعثة النبوية الشريفة .

وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام وجمع كلمة الناس في جزيرة العرب ووحدهم وجمع شملهم بعد جهاد طويل وتحمل شديد للمشاق ، وقد أصاب في جزيرة العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ، ولهذا كان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على العرب عظيماً ثم على العالم أجمع فرسالته عامة لجميع البشر في جميع الأزمنة التي تلته ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) .

يقول " مايكل هارت " : ((لقد اخترت محمداً صلى الله عليه وسلم في أول قائمة الخالدين ، ولابد أن يندهش الكثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك ، ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي ، محمد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً ، وبعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته فإن أثر محمد ما يزال قوياً متجدداً)) [1]

ورغم ما كان العرب يتمتعون به من درة على التفوق في بعض مجالات الحياة إلا أنهم عجزوا عن إقامة حضارة كالتي قامت بعد البعثة المحمدية ، وذلك رغم ما كانوا يمتلكونه من بعض المعارف والعلوم كعلم الأنساب والتاريخ وتفسير الأحلام والقيافة ومهاب الريح ، وكانت هذه كما يقول الشهرستاني : حدود معارف العرب قبل

---

(١) الخالدون مـائة .

الإسلام ،لكنها علوم لم تخرج عن حد التجارب التي لم تدون في صحف أو رسائل فهم قوم أميون ، مع ما كان لهم من فصاحة وبلاغة وأشعار وحكم وأمثال وتجارة وأسواق للشعر والأدب ، لكنّ واقعهم قبل البعثة كان مليئاً بالشر كذلك ، فقد كانت حياتهم حياة غوغائية تخلو من النظم الأخلاقية التي تقيم الحضارات السامية ، فكانوا يعيشون في مُناخ يتسم بالمجون والخمر والنساء والحرب وقد أجاد طرفة بن العبد حين صور حياته فقال :

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني *** وإن تقتضني في الحوانيت تصطد

وصدق جعفر بن أبي طالب حين وصف حالة حياتهم في جاهليتهم قبل البعثة فقال للنجاشي :

((أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا كذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام))[1] وهذا لا يعني تجريد للعرب من المفاخر والمحامد بل لقد كانوا أصحاب شهامة ووفاء ونجدة وكرم وإباء ، امتازوا بالصحة في الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم ، وهم لذلك كانوا أصلح الأمم لدعوة الإسلام وحَمْل تبعته ، وما ظهر فيهم من أمراض عقائدية وأخلاقية جاء الإسلام ليغيرها ويداويها ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : ((إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))[2]

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢١٩/١ مطبعة الحجاز .

(٢) الموطأ : حُسن الخلقة ٨ .

ويقول جل شأنه ((ما فرطنا في الكتاب من شيء)) الأنعام : ٣٨
وهكذا جاءت البعثة لتولد حضارة عظيمة لها جذورها الضاربة في عمق التاريخ ، ولها مقومات النمو والبقاء والخلود والعزة وهي مستندة إلى أسمى شريعة وأفضل دين .

(٢)

أسس ومقومات الحضارة الإسلامية

ـ ((يجب على كل إنسان أن يعرف الإسلام ؛ لأن من لا يعرفه يعيش بلا هوية ، ويموت بلا وطن ، فالإسلام هو الوطن الحقيقي للناس جميعاً ، والقرآن يحقق للمسلم مواطنة إسلامية غير عادية ، ففيه النهج الصحيح للحياة السوية)) .
هوبيكر : مستشرق ألماني

١ . معرفة الغاية من الحياة :

في قصيدة إيليا أبو ماضي الزائفة ((الطلاسم)) يقول :
جئت لا أعلم من أين أتيت ، ولكني أتيت .
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت .
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت .
كيف جئت ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟ لست أدري
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود ؟
هل أنا حر طليق أم أسير في قيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟

****

وهذا أبو العلاء المعري يشابهه فيقول :

* قال المنجم والطبيب كلاهما لا بعث بعد الموت قلت : إليكما

إن صح قولكما فلستُ بنادمٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

إن كل هذا التيه الواضح في ما قاله الشاعران ، يدل على تخبط في التصور العام لمعنى الحياة وقيمتها ، ويدل على يأس وقنوط من كل شيء ، فكلامهما مليء بالشكوك والظنون والأوهام ، فالأول يجهل الغاية من وجوده ويظن نفسه صدفة من مصادفات الطبيعة ، فكل شيء في حياته يسير خبط عشواء ، أما الشاعر الثاني فبيتاه يدلان على أنه دخل في مراهنة مع المنجم والطبيب وأنه لن يخسر بحال ، فهو مثلهما ليس متيقناً من شيء ، فإن كان هناك بعث فهو الفائز وإلا فلن يخسر شيئاً !! ويرد عليهما القرآن العظيم فيقول :

((وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)) الأعراف : ١٧٢

ويقول في موضع آخر : ((لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين)) آل عمران : ١٦٤

إن المؤمن صافي النفس موحد الوجدان يسلم لله ويخلص له ، أما المشرك فهو مبلبل الفكر مفرق الهم لأنه استيقن آيات الله في نفسه وفي الكون من حوله ثم اتخذ من دونه وليا فغدا متنازع النفس مشتت الولاء .

إن الإنسان حين يستشعر ارتباطه بالله يجد أن كل شيء خاضع لله محكوم بأوامره مقيد بنواهيه ، فيسجد المؤمن طوعاً لا كُرهاً لأنه غايته هي الوصول لله الواحد الأحد ، فكل ما في الكون ساجد عابد ، وما هو إلا جزء من تلك المنظومة الرائعة ((وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً)) الإسراء : ٤٤

إن حياته الدنيوية مرحلة ليس إلا ، وديننا يعلمنا أن نعتبر الدنيا قنطرة لحياة أبدية خالدة ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)) ، خُلق ليكون خليفة في الأرض ، وكُرم بهذه الخلافة ومُيز عما سواه من الخلائق ، مأمور بالنظر والتفكير والعبادة والتسبيح والإعمار والإبداع ، وكل ذلك في توجهه إلى الله عبادة .. وهذه هي الغاية العظمى من خلقه .

*** *** *** *** ***

٢ . الإحاطة بكل نواحي الحياة :

عقيدة المسلم تعطيه الإحاطة والشمول ، فهو مؤمن بكل الرسالات السماوية ، فالإسلام جمع شرائع الأمم السابقة وتعاليمها وصاغها دستوراً قويماً لأمة الخلافة والشهادة ، ثم جاء الإسلام مبيناً لجوانب الحياة صغيرها وكبيرها ، أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وتولى هداية الإنسان من قبل ولادته ثم واكب خطوات حياته خطوة خطوة ، في غدوه ورواحه ، ليله ونهاره ، حتى يهيئه للخلافة ويعدل مساره كما جعل منه عضواً في جماعة كبيرة ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) الحجرات : ١٣ . فبدد سحب الأحقاد والتعالي ووجهها للحب والإخاء والتعاون ليكمل العمل النافع ويفلح الجهد وتستقيم الحياة .

**** **** **** **** ****

٣ . النظام الاجتماعي المتكامل :

جاء الإسلام بنظام اجتماعي متكامل صبغ به حياة المسلمين ، ليحيوا حياة طيبة ، فهو نظام من وحي السماء لا تداخل معه للأهواء الشاردة ولا النظرات القاصرة ، فقد أسس الله أمر المجتمع على معاني الإيمان والعدل والاتزان فتستقيم المصالح العامة والخاصة ، فهو يحفظ للفرد كرامته وإنسانيته وحريته وخصوصيته ويحفظ للجماعة قدرها ونظامها وسلطانها ، فليس بين الفرد والجماعة سبب يدعو للتناقض والتجاذب ؛ لأن في وحدة الغاية الدينية واتخاذها عن رضى وقناعة ما يؤلف بينهما . فالمؤمنون في اعتصامهم بالله الواحد لا معبدهم ظروف البيئة الفطرية ولا المصالح والأهواء البشرية ولا تفرقهم بعد أن وحدهم الله فهم دائماً مؤتلفين متوالين في رحاب الإيمان .

لقد ألغى الإسلام العصبية التي كانت في الجاهلية وجعل محلها رابطة العقيدة ؛ فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ولا لأبيض على أسود إلا بالعمل الصالح ، وقد كانت هذه العدالة الاجتماعية حتى مع أهل الذمة ، والموالي وهم المسلمون الأعاجم ومعظمهم من الفرس ، ومع الرقيق الأسرى . فالقومية عالمية والوحدة الإنسانية متكاملة ، تكون جماعة دولية تُحمى فيها الامتيازات القائمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية ، ومن المستحيل أن تحقق حضارة إنسانية بغير ذلك ، ومع تفاوت الناس في القدرات والخصائص وتفاوتهم تبعاً لهذا في الأوضاع إلا أن المساواة قائمة ، فلا ريب أن ذلك التفاوت ضروري لإعطاء القوامة من يستحقها وهذا مصداق قوله تعالى : ((ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً)) الزخرف : ٣٢ .

فهذا التفاوت في مجال الأعمال ، أما في مجال المعاملة والحقوق والكرامة والعدل والحرية والأخلاق والإنسانيات والروابط الأدبية والعبادة والشعائر فالكل سواء .

هذه المساواة تقودنا إلى مبدأ العدالة ((وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) النساء : ٥٨ ، حيث يُمنع الظلم أياً كان مصدره ومهما صغرت نتائجه ((فتلك بيوتهم خاويةٌ بما ظلموا)) النمل : ٥٢ ، وفي الحديث : ((ما بال أقوامٍ يتشفعون في حد من حدود الله ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها))[1].

ومن العدالة الاجتماعية أن يعانَ الضعيف ويُسد عجز العاجز عن العمل بتسهيل أسباب الحياة له ، ((والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم)) المعارج : ٢٥ .

وقرر الإسلام مبدأ الإخاء البشري وهو نتاج من مبدأ المساواة ، وأوصى بالبر وبصلة الأرحام ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)) النساء : ١ ، لقد عطف الله على لفظ الجلالة ـ في الآية ـ لفظ الأرحام ليدل على أن لهذه الأرحام شأناً أيَّ شأن .

وارتقى الإسلام بالنفس في تقريره للإخاء إلى درجة الإيثار ، فطهر النفوس من أدران الجاهلية ، الغل والحسد والشح والبخل والأثرة ، فانمحت الفوارق بين الطبقات ، بين الأغنياء والفقراء ، بين السادة والعبيد ، بين المتحضرين والبُداة ... أما الحضارة الغربية فقد عجزت عن تحقيق مبدأ المساواة في مجتمعاتها ، ولا تزال

---

(١) رواه مسلم ٥ / ١١٤ حدود المختصر ٢٧٩ .

مشكلة التمييز العنصري قائمة في الولايات المتحدة الأمريكية وأفريقيا وروديسيا فللبيض كنائسهم المستقلة وللسود كنائسهم الخاصة .

كما رعى الإسلام حقوق المرأة وأيد حريتها وإنسانيتها وجعلها مساوية للرجل في الحقوق لها ما له وعليها ما عليه ، وقد كان النساء قبل ذلك ينزلون منزلة الإماء ، فقد كان الرجل يخسر امرأته في القمار ، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج فإذا مات زوجها صارت أمة بنت زوجها المتوفى وخادم الأحماء ، وفي الهند باتت تحرق نفسها خوفاً من العذاب الذي يتوعدها بعد وفاة الزوج !!

قرر الإسلام لها بتشريعه حياة مثالية قوامها المودة والرحمة وأقر لها حق اختيار الزوج كما شرع لها الطلاق . وإن كان أبغض الحلال . حتى يُبعد الخِدانة عن المجتمع المسلم كما يحدث في الغرب حين تسوء العلاقة بين الزوجين ، وأدركت بعض الدول الأوروبية الأمر وخطورته فيسرت الحصول على الطلاق ، فما إن أُقِرَ الطلاق في إيطاليا حتى قُدِّم للمحاكم أكثر من مليون طلب طلاق !!

*** *** *** *** ***

٤ . العمل وإعمال الفكر : .

العقل البشرى طاقة هائلة ، ونعمة من أكبر نعم الله على الإنسان ، ((قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون)) والفؤاد يُستخدم في القرآن بمعنى العقل ، والإسلام يحترم الطاقة العقلية ويشجعها ويربيها لتتجه في طريق الخير ، ولذلك فهو يمزج تلك الطاقة بمزيج الروح لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق . وقد انطبع تفكير المسلمين بالدقة العلمية . على الرغم مما كان لديهم من قلة الآلات والأدوات . فوصلوا إلى كشوف علمية تثبت لهم الجد في التحصيل والصدق في التفكير .

ووجه القرآن العقل إلى التأمل والتدبر ، والهدف منهما التوصل إلى حقيقة الخلق زيادة في اليقين والإيمان بالله ، وليس كما كان التأمل عند الفلاسفة بدون هدف ينتهون منه إلى لا شيء !!

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون)) المؤمنون : ١١٥ ، ((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً)) ص : ٢٧ ، ((وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)) الجاثية : ٢٢ .

((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير)) العنكبوت : ٢٠ .

وأكد الإسلام على أهمية العلم منذ نزلت أول آية على قلبي الرسول صلى الله عله وسلم في غار حراء ((اقرأ باسم ربك الذي خلق)) العلق : ١ ، ورفع سبحانه من شأن العلم حين أقسم بأداته وهي القلم ((ن ، والقلم وما يسطرون)) القلم : ١ .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ((ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) رواه مسلم .

وجعل الرسول مداد العلماء أثقل من دم الشهداء ، كما جعل صلى الله عليه وسلم فك إسار المتعلمين من أسرى قريش في بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

ومن عوامل ازدهار الحياة الفكرية في الحضارة الإسلامية التعريب الذي بدأ زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، واطلاع المسلمين على حضارات البلاد المفتوحة ، فازدهرت الترجمة ونُقلت المعارف ، لينتقل المسلمون بعدها إلى الإبداع مع طرح البدائل المذيلة بالبراهين ، فبعد قراءتهم للفلسفات اليونانية والهندية والفارسية جابهوا خصومهم بالمنطق والحجج مما أدى إلى ظهور أساتذة العصور الوسطى كالغزالي وابن رشد وابن خلدون وابن طفيل وابن الهيثم ، وكثرة المكتبات حيث أقبل الناس على اقتناء الكتب لازدهار صناعة الورق في سمر قند وبغداد ودمشق والقاهرة ، وكانت تلك المكتبات على أنواع ثلاث : منها المكتبات العامة الملحقة بالمساجد والمدارس ، ومكتبات خاصة في البيوت ، ومكتبات عامة خاصة اقتصرت على العلماء والطلاب والباحثين مثل مكتبة ((بيت الحكمة)) التي كان لها مدير عام وقاعات ترجمة وقاعات نُسّاخ وعمال تجليد ، ومكتبة العزيز في القاهرة التي أقامها العزيز بالله ، وكان فيها مليون وستمائة ألف مجلد مع ستة آلاف مجلد في الرياضيات وعشرة آلاف في الفلسفة ، ومكتبة قرطبة في عهد الحكم المستنصر في القرن الرابع الهجري وكان فيها أربعمائة مجلد وكانت فهارسها أربعة وأربعين سجلاً ، كل هذه النهضة العلمية في العالم الإسلامي في حين تفشت الأمية في أوربا في العصور الوسطى حيث الكتب نادرة حتى كتابهم المقدس لا يوجد إلا في الأديرة ، لقد اقتنى الحكم في قرطبة مكتبة فيها أربعمائة ألف مجلد في حين كان عند شارل الخامس ملك فرنسا بعدها بأربعة قرون مكتبة فيها ألف مجلد فقط .

لقد كانت جامعاتنا في العصور الوسطى مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها طلباً للعلم ، وكان ملوك أوربا يغدون على بلاد المسلمين ليعالَجوا فيها ، فكانت

بلاد المسلمين العرب مصدر إشعاع فكري وعلمي وحضاري لأوربا ، يقول ((غوستاف فالوبون)) : ((كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضرون والأوربيون هم المتأخرون ولا أدلَ على ذلك أننا نسمي تاريخ أوربا في ذلك الوقت العصور المظلمة)) [1] ويقول ((بارتلمي سنت هير)) في كتابه عن القرآن الكريم : ((أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سبنوراتنا الغليظة في القرون الوسطى وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها)) [2].

*** *** *** *** *** ***

(١) في التاريخ العباسي والأندلسي د/ أحمد مختار العبادي صـ٢٩٥ـ.

(٢) حضارة العرب : غوستاف لوبون صـ ٥٧٦ ـ .

٥ . الأخلاق الفاضلة عماد الحضارة الثابتة :

روي أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه فقال : يا أبا إسحاق إني مسرف على نفسي فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً ، قال : إن قبلت خمس كلمات وقدرت عليها ، لم تضرك المعصية ولم توبقك لذة ، قال : هات يا أبا إسحاق . قال : أما الأولى : فإذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل رزقه ، وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً له ، والثالثة : إذا أردت أن تعصيه وأنت تأكل رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه . وإذا جاءك ملَكُ الموت لقبض روحك فقل له : أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً ، وأما الخامسة : فإذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم ، فإن لم تستطع منع نفسك عن المعصية مع كل هذا فكيف ترجو النجاة ؟ فقال الرجل : يا إبراهيم حسبي حسبي ، أنا أستغفر الله وأتوب إليه ، ولزم العبادة حتى فارق الدنيا رحمه الله .

****

رحلة في ذاكرة الأمة

عبر وعظات

الحياة جد والجد حيـاة

موت من يكسل أولى من بقاه

ليس مني كَسِلٌ فيما عناه

إنني الإسلام ديـن العـالمين*

الشاعر الشيخ محمد خليل الخطيب رحمه الله .

الإهداء :

إلى والدي الحبيب

كلمات أسطرها تعبيراً عن تقديري العظيم لكل ما بذلته من أجلي في الحياة بأسرها ، وما بذلته من أجل رفعة قلمي من جانب آخر ..

والدي العزيز .. كنت ومازلت أنموذجاً يبهرني بنجاحه وتقدمه على الجميع عالماً ورائداً وأستاذاً وكاتباً ومحاضراً ..

والدي الغالي .. أسطورتي .. مازال عطاؤك ممتداً ومابرحت لك ممتنة .. أطال الله بقاءك ونفع بك أحبابك .

ابنتك ..

((فاقصص القصص لعلهم يتفكرون))

إن التاريخ ليس مجرد أقاصيص تحكى ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث .. إنما يُدْرس للعبرة ويُدَّرس للتربية .. تربية للأجيال ، وكل أمة من الأمم تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة فتصوغه بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها .. ولا يعني ذلك تزوير التاريخ الإسلامي لإعطاء صورة وضّاءة لإحداث لأثر معين في نفس الدارس ، ولا إلى إغفال عثرات المسلمين وانتكاساتهم وإبراز الأمجاد والبطولات وحدها ، فهذا ليس هو المطلوب .. وإنما هو المطلوب أن يكون الدرس التربوي الأكبر المستفاد من التاريخ : أن أحوال هذه الأمة في صعودها وهبوطها ورفعتها وانتكاسها إنما تخضع لنواميس ربانية ثابتة لا تحابي أحداً ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحد ..

* محمد قطب .

مقدمة ..

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين وخاتم النبيين وقائد الغُر الميامين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وذريته أجمعين ومن تبعهم بهدي وإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد ..

فيقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه : ((إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم)) .

إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ رجال ما عرف التاريخ أمثالهم أبداً ؛ فهم رجال فقهوا دينهم ودنياهم فأداروا الدنيا بحكمة وعيونهم على الآخرة .. فتحققت المعادلة الصعبة العجيبة : عز في الدنيا وعز في الآخرة .. مجد في الدنيا ومجد في الآخرة .. مُلك في الدنيا ومُلك في الآخرة .

التاريخ الإسلامي هو تاريخ حضارة جمعت كل مجالات الحياة في منظومة رائعة راقية ، جمعت الأخلاق والسياسة والاجتماع والاقتصاد والمعمار والقضاء والترفيه والقوة والإعداد والذكاء والتدبير ... جمعت كل ذلك مع سلامة العقيدة وصحة العبادة وصدق التوجه ونبل الغاية ... هذا هو التاريخ الإسلامي في أصله وجوهره .

ولا يمنع ذلك أن هذا التاريخ العظيم يحوي أخطاء بعضها عظيم ويشمل عيوباً بعضها خطير ، وإنه لمن العبث ـ كما يقول الدكتور راغب السرجاني ـ أن ندعي أنه بياض بلا سواد ، ونقاء بلا شوائب ، لكن من الظلم البيّن أن نلصق أخطاء المسلمين بدين الإسلام ، فالإسلام دين لا ثغرة فيه ولا خطأ فهو دين محكم تام كامل أنزله الذي يعلم السر وأخفى سبحانه هو الحكيم الخبير ... ومن خالف دين الإسلام من المسلمين فوباله على نفسه وليس على الإسلام .

وفي هذا الكتاب سنقص بعض القصص لنعتبر ونتعظ من أحاديث من سبقونا ونتعلم من تاريخهم وأحداث حياتهم ..

وسأنتهج منهاج القص الخالص ؛ فالقصص تسكن في أعماقنا وفي ثنايا حياتنا ، ومع مَر الزمان وتعاقب الأيام والشهور والأعوام تُطوى الكثير من الحكايات والروايات منها ما اشتهر على ألسنة الغادي والرائح وصار أبطالها مضرب الأمثال ، ومنها ما عفا عليها الزمان وطوتها أيدي النسيان فلم تصر حديثاً للركبان ولا مثاراً للجدل بين السكان ، وسوف نُعني بذكر نماذج من كل ذلك الآن فبهداية الله الهادي أبتدئ راجية منه العفو والغفران والصلاة والسلام على سيد الثقلين الإنس والجان .

. ١ .

على قلب رجل واحد !

بعد أن هاجر المهاجرون إلى المدينة المنورة فارين بدينهم من بطش المشركين آواهم الأنصار وفتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم بصدر رحب ونفس راضية وحفاوة بالغة ، فكان الصحابي من المهاجرين ينزل على أخيه الأنصاري فيسارع الأنصاري بتقسيم ماله شطرين بينهما وتقسيم داره نصفين بينهما وهكذا ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين قلوب المسلمين جميعاً فأصبحت عروة الإيمان فوق كل أسباب الصلات البشرية من دم ونسب ، وأصبح عقد الأخوة ورابطة الأخوة بينهما مقدَمة على سائر الروابط ..

قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم : ((حضر إليكم إخوانكم في الدين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من بطش قريش وطغيانها))

ولقد ترك بعض المهاجرين ماله في مكة وضحى به في سبيل عقيدته ورغب في الآخرة عن الدنيا وعمل علي رضي الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلباً لحياة الخلد في جنات النعيم ، وهم الآن بينكم لا مال لهم ولا ديار ، إنهم إخوانكم في الله والدين ، فماذا أنتم فاعلون؟! فقالوا جميعاً : ((أموالنا وديارنا وأنفسنا لهم يا رسول الله)) هذه هي النفوس التي هذبها الإسلام بعد أن كانوا في الجاهلية في معارك وحروب مستعرة لا تنتهي ولا تهدأ فأنزل الله فيهم وفي المهاجرين قول جل شأنه : ((للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون))
[الحشر: ٨ ،٩]

أقرع النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فأقرع لكل مهاجر على أنصاري ليكون أخاه في الله فيعيشا معاً تحت سقف واحد كأنهما أخوان شقيقان يعيشان معاً على وفاء ووئام وتراحم وإخلاص .

وكان سعد بن الربيع أخاً لعبد الرحمن بهذه القرعة وفرح بأخيه المهاجر فرحاً شديداً وأراد أن يبرهن له على وفائه وأخوته الصادقة فقال له ذات يوم :

يا أخي عبد الرحمن أنا أكثر منك مالاً فهيا أشاطرك ، وعندي زوجتان فانظر أيهما رغبت أطلقها وتتزوجها إذا قضت عدتها !!

فقال له عبد الرحمن :

. بارك الله لك يا أخي في مالك وزوجتيك ، قد أحسنت وأكرمت ، وكل ما أرجوه منك أن تدلني على سوق المدينة.

وكان عبد الرحمن فطناً ماهراً في التجارة ، حتى لقد كان يقول عن نفسه : ((لقد رأيتني لو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة))

وبدأ عبد الرحمن تجارته بدينارين وأخذ بيمينهما حتى أصبحا مائة دينار ، وأخذت تجارته تنمو يوماً بعد يوم حتى غدا من أثرى أثرياء المدينة ولكنه أبداً لم ينس موقف أخيه سعد بن الربيع منه وكيف ألف الإسلام بين قلبيهما النقيين التقيين .

** ** ** ** ** ** ** ** ** ** ** **

. ٢ .

العدالة العمرية

إننا إذا ما ذكرنا كلمة العدل تبادر إلى الأذهان مباشرة العدل العمري ، ذلك العدل الذي اقترن بالرحمة فسمي بالعدل الرحيم أو العدالة الرحيمة والعدل خلق من أخلاق الأنبياء ، وقد سمى الله تعالى نفسه وأمر به وحث عليه فقال : ((وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)) [الأنعام :١٥٢] وقال : ((إن الله يأمر بالعدل)) [النحل : ٩٠] ووصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ((المقسطون يوم القيامة عند الله ـ عز وجل ـ على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ عز وجل ـ وكلتا يديه اليمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)) [صحيح ابن حبان] .

ونحن نتحدث هنا عن العدالة الرحيمة فهي ما نعنيه بالعدالة العمرية ، ولعلك تسأل : وهل يجتمع العدل والرحمة ؟! إن كليهما ينافي صاحبه في الظاهر ، ولكن الله قرن بينهما فقال : ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان)) قال صاحب الظلال في هذه الآية : ((جاء بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالود والبغض ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب والغنى والفقر والقوة والضعف ، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل : الإحسان يلطف من حدة العمل الصارم الجازم)) ومن هنا نقول :

ـ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال ، وكان يمشي إلى المغيَّبات اللواتي غاب أزواجهن فيقف على أبوابهن ويقول : ألكن حاجة ؟ وأيتكن تريد أن تشتري

شيئاً فإني أكره أن تُخدعن في البيع والشراء ... فيشتري لهن حوائجهن ومن ليس عندها شيء اشتري لها من عنده .

. وكان يداوي عماله : فقد مرض معيقيب وكان خازن عمر على بيت المال فكان يطلب له الطب مِن كل مَن يسمع عنده بطب حتى قدم عليه رجلان من أهل اليمن ، فقال : هل عندكم من طب لهذا الرجل الصالح فإن هذا الوجع قد أسرع فيه .

قالا : أما شيء يذهبه فإنا لا نقدر عليه ولكنا نداويه بدواء يقفه فلا يزيد .

قال عمر : عافية عظيمة أن يقف فلا يزيد .

قالا : هل ينبت في أرضك هذا الحنظل ؟

قال : نعم . قالا : فاجمع لنا منه .

فأمر عمر فجمع منه مكتلان عظيمان ، فعمدا إلى كل حنظلة قطعاها باثنين ثم أضجعا معيقيباً فأخذ كل واحد منهما بإحدى قدميه ثم جعلا يدلكان بطون قدميه بالحنظل حتى إذا امّحقت أخذا أخرى ، ثم أرسلاه فقالا لعمر : لا يزيد وجعه هذا أبداً .

قال الراوي : فوالله مازال معيقيب بعدها متماسكاً ما يزيد وجعه حتى مات .

. ويخدم العجائز ؛ فقد خرج ليلة فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل بيتاً آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت ، فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال : ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت : إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى .

فقال طلحة لنفسه : ثكلتك أمك طلحة ! أعثرات عمر تتبع ؟

إن اشتغال عمر رضي الله عنه بأمر الرعية لا يقف عند حد قيامه بواجبه على الوجه الأكمل كحاكم ولا يكتفي ببذل المجهود البدني المتواصل ليل نهار ، ولكنه منح الرعية كل قلبه وعواطفه يشاركهم أفراحهم وأحزانهم ويقاسمهم متاعبهم

وآلامهم ، يعودهم في بيوتهم إذا ألم بهم طارئ من طوارئ الحدثان فيواسي وينصح ويعين ...

. أما عمر بن عبد العزيز فقد حذى حذو جده عمر بن الخطاب في عدله مع الرعية ورحمته بهم ، اتصف بالأخلاق الفاضلة والسياسة الحكيمة ، وكان قوياً في الحق على الباطل ، شديداً في الله على الأشرار وأهل الأهواء ، وهو مع ذلك ذو حلم ولين وعلم ودين ورحمة للمستضعفين وبأس على الظالمين وخوف من الله شديد ورأي في المفصلات سديد حتى استقام له الأمر بجِده ما لم يستقيم لأحد من الخلفاء بعد جَده .

. قال يحيى بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناسَ ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقهم وولاؤهم للمسلمين .

. وكان الله قد أعانه من أهله بسهل أخيه وعبد الملك ابنه ومزاحم مولاه فكانوا أعواناً له على الحق وقوة له على ما هو فيه ، فاجتمع نفر من بني أمية إلى عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فقالوا له : إن أباك قطع أرحامنا وانتزع ما في أيدينا وعاب على سلفنا ، وإنا والله لا نصبر له على ذلك فقل له يكف عما نكره ، ففعل ذلك عبد الملك ودخل إليه فأخبره بذلك ، فكأن عمر وجد في نفسه مما قال فقال له عبد الملك : يا أمير المؤمنين امضِ لما تريد ، فوالله لوددت أنه قد غلت بي وبك القدور في الله ، فقال له : جزاك الله خيراً من ولد ، ثم قال : الحمد لله الذي شد ظهري بسهل أخي وعبد الملك ومزاحم .

. وقال عمر لزوجته فاطمة بنت عبد الملك : قد علمتِ حال هذا الجوهر (لحليها) وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه فإن خلصتُ إليه أنفقته وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك . قالت له : افعل ما شئت ، ففعل ذلك ،

فمات رحمه الله ولم يصل إليه فرد ذلك إليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه وقالت : ما كنت لأتركه ثم آخذه فقسمه بين نسائه ونساء بنيه !!

. هذا هو عمر الذي قال فيه جده ابن الخطاب : من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً . فصدَّق ظن جده فيه .

عن الزهري قال : كتب عمر بن العزيز إلى سالم بن عبد الله يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب في الصدقات فكتب إليه بالذي سأل وكتب إليه : إن عملت بمثل عمل عمر في زمانه ورجاله في مثال زمانك ورجالك كنت عند الله خيراً من عمر !!

** ** ** ** ** ** ** **

. ٣ .

سابقة لعثمان ذي النورين

أسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن تجاوز الثلاثين بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة رضي الله عنهم .

وتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا حيز زوجين ؛ ذهب أسامة بن زيد إليهما بإناء فيه لحم فإذا رقية رضي الله عنها جالسة فجعل أسامة ينظر مرة إليها ومرة إلى وجه عثمان فلما رجع سأله النبي صلى الله عليه وسلم : دخلت عليهما ؟ قال : نعم ، قال : فعل رأيت زوجاً أحسن منهما ، فأجاب : لا يا رسول الله .

وكان رسول الله صلى عليه وسلم يقول لابنته أم كلثوم لما تزوجها عثمان بعد موت رقية رضي الله عنها :. ((إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد)) .

وفي جيش العُسرة كان لعثمان موقف عظيم حيث جهز ثلث الجيش ، جهزهم بستمائة وخمسين بعيراً وبخمسين فرساً ، وجاء بألف دينار في كمه فنثرها في حجر رسول الله صلى الله عليه فقبلها وهو يقول : ((ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم)) ((من جهز تجهيز جيش العسرة فله الجنة)) .

ودعا له فقال : ((غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما أخفيت وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا))

وكانت بئر رومة ليهودي يبيع ماءها للمسلمين فاشترى عثمان نصفها وأمر المسلمين أن يأخذوا حاجتهم من الماء في اليوم المخصص لعثمان ، وبعد زمن وجد اليهودي أن لا أحد يشتري منه الماء فباع النصف الثاني لعثمان فوهبها كلها للمسلمين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك : ((من حفر بئر رومة فله الجنة)) وسبق إليها عثمان .

وقال علي رضي الله عنه عن عثمان بعد مقتله : ((إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)) .

***

بناء الأسطول الإسلامي :

من أهم الإنجازات التي تمت في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه إنشاء الأسطول البحري ، فبعد الفتوحات الإسلامية في مصر والشام كان المسلمون قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فكانوا بحاجة لقوة بحرية بالغة القوة شديدة المهارة في القتال بحراً تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات أسطول الروم .

وقد عرض معاوية هذا الأمر على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فرض قائلاً : لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم ، خوفاً المسلمين من أهوال البحر ، ولما عرض معاوية الأمر على عثمان رفض لنفس السبب الذي رفض من أجله عمر إلا أنه اقتنع بعد ذلك بإلحاح شديد من معاوية ، غير أنه اشترط على معاوية ألاّ يجبر أحداً من المسلمين على العمل في الأسطول . وبالتعاون الجاد بين مصر والشام أو بين عبد الله بن سعد ومعاوية بن أبي سفيان برز الأسطول الإسلامي وصار قوة لا يستهان بها وقد بنى الأسطول عام ٢٤هـ ، وفي عام ٢٨هـ فتحت جزيرة قبرص لكن أهل قبرص لم يلتزموا بشروط الصلح فعاود معاوية غزوها سنة ٣٣هـ وضمها إلى دولة الخلافة ونقل إليها اثني عشر ألفاً من المسلمين من أهل الشام وبنى لهم الدور والمساجد .

*** *** *** *** *** *** *** *** *** ***

. ٤ .

أبو جعفر المنصور

كان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً جمّاعاً للمال تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس ، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه مثل أبي مسلم الخرساني وعمه عبد الله بن علي بعد أن أعطى كل واحد منهما الأمان ، وهو الذي ضرب أبا حنيفة رحمه الله على القضاء ثم سجنه فمات بعد أيام ، وقيل : إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه ، وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً خليقاً للإمارة ، وكان غاية في الحرص والبخل فلقب أبا الدوانيق لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات .

أخرج الخطيب عن الفحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((منا السفاح ومنا المنصور ، ومنا المهدي)) قال الذهبي : إسناده صالح .

حكى المنصور فقال : رأيت كأني في الحرم وكأن رسول صلى الله عليه وسلم في الكعبة وبابها مفتوح فنادى مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخي أبو العباس حتى صار على الدرجة فأدخل فما لبث أن خرج ومعه قناة عليها لواء أسود قدر أربعة أذرع ، ثم نودي : أين عبد الله ؟ فقمت على الدرجة فأصعدت وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وبلال فعقد لي وأوصاني بأمته وعممني بعمامة فكان كورها ثلاثة وعشرين وقال : خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة .

ومن كلام المنصور : الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة خلال : إفشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك .

وكان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانباً جيداً وطرفاً صالحاً .

اجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : ليمل علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقُطاع المسافات ، تارة بالعراق وتارة بالحجاز وتارة بالشام وتارة باليمن فهؤلاء هم نقلة الحديث .

هكذا كان المنصور ذا عزيمة ورشاد فهو يعلم حقاً فضل أولو العزم من الرجال ، وهكذا كان مثلهم في حياته فقد كان من أعظم رجال آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ، كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والآفاق وشاور سُماره من ذلك فيما أرب فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس إلى إيوانه .

مات أبو جعفر المنصور سنة ١٥٨هـ في طريقه إلى الحج ودفن بمكة وكان آخر ما تكلم به أن قال : ((اللهم بارك لي في لقائك)) .

*** *** *** *** *** *** *** ***

. ٥ .

أويس بن عامر (خير التابعين)

قال الذي لا ينطق عن الهوى : ((إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة هو بها بَر ، لو أقسم على الله لأبره ، وكان به بياض فبرئ ، فمروه فليستغفر لكم)) أخرجه مسلم .

وقال المبعوث رحمة للعالمين : ((إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العُرى يحجزه إيمانه أن يسأل الناس منهم أويس القرني)) .
وقال عليه الصلاة والسلام : ((يا أبا هريرة إن الله تعالى يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤوسهم المغبرة وجوههم الخمصة ـ الجوعة ـ بطونهم إلا من كسب الحلال الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا وإن غابوا لم يفقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا وأن طلعوا لم يفرح بطلعتهم وإن مرضوا لم يعادوا وإن ماتوا لم يشهدوا .
قالوا : يا رسول الله كيف لنا برجل منهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ذلك أويس القرني . قالوا : وما أويس القرني : قال النذير المبين صلى الله عليه وسلم : أشهل ذا سهوبة [1] بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة آدم ـ أسود ـ شديد الأدمة ، ضارب بذقنه إلى صدره رام بذقنه إلى موضع سجوده واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن يبكي على نفسه ذو طمرين [1] لا يؤبه له ، متزر بإزار صوف ورداؤه صوف ، مجهول في أهل الأرض معروف في السماء ، لو أقسم على الله لأبر قسمه ، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، ألا وأنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد :

ادخلوا الجنة ويقال لأويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله عز وجل في مثل عدد ربيعة ومضر .

ثم نظر أبو القاسم صلى الله عليه وسلم نحو أبيحفص وأبي الحسن وقال :

. يا عمر ويا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه يستغفر لكما كما يغفر الله لكما)) رواه أبو نعيم في الحلية .

ووفد أويس بن عامر المرادي فيمن وفد من الناس إلى أمير المؤمنين عمر فقال له عمر : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال : أنت من مراد ثم من قرَن ؟ (قرن بن ناجية بن مراد بن أحد أجداد أويس) قال : نعم ، قال : كان بك برص فبرأت منه إلا موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ولك والدة ؟ قال : نعم ، قال عمر : فاستغفر لي يا أويس ، فاستغفر له ، ثم قال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب إلى عاملها ؟ قال أويس : أكون في غبراء الناس أحب إليّ ، ثم فطن الناس لأويس فانطلق على وجهه وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : ((رب أشعث أغبر ، لو أقسم على الله عز وجل لأبره)) اكتفى من الدنيا بالخشن من الثياب واليسير من الزاد لأن تقوى الله كانت خير زاد له ، كان مجهولاً لدى أهل الأرض معروفاً لدى أهل السماء عاش باليمن في حضيض الفقر يرعى إبل الأغنياء بدراهم معدودة إلا أنه تغلب على الدنيا وعلى الشيطان وعاش في كنف الله صفياً نقياً خالياً من كل شائبة محلقاً بروحه في ملكوت السموات والأرض .

وبقى على حالته تلك حتى ذهب مع المسلمين حين غزوا أذربيجان وفي رحلة العودة مرض ومات وانطوت صفحة رجل كان يقوم الليل ويصوم النهار ويتعيش من أربعة دراهم ، وما رئي إلا والدموع في عينيه من خشية الله !! يقول ناصحاً : الموت لم يُبق لمؤمن فرحاً !! وكان إذا أمسى يقول : هذه ليلة الركوع .. فيركع حتى يصبح ، وكان يقول إذا أمسى : هذه ليلة السجود ، فيسجد حتى يصبح ، وكان

إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول : اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به .
فكان يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه . أي إلى الجمعة . (رواه أبو نعيم في الحلية) .
ورأى أبو يعقوب القارئ أويس في المنام فقال له : أوصني . فقال أويس : ابتغ من رحمة الله عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك .

** ** ** ** ** ** ** **

. ٦ .

معركة الزلاّقة

آل أمر المرابطين إلى يوسف بن تاشفين وكان رجلاً تقياً حازماً داهية مجرباً فمد فتوحه في المغرب الأفريقي حتى دان له جميعه واختط مدينة مراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم عقلاً ، فكانت مراكش عاصمة لدولة المرابطين ثم ملك سبتة وطنجة وأصبح بذلك مطلاً على جنوب الأندلس ودولته هي أقوى دولة بالمغرب يومئذ ومن ثم استنجد به أهل الأندلس فاستجاب لهم بدافع من النصرة لإخوانه وحب الجهاد فحشد الجيوش للجهاد ، وما كادت سفن المسلمين تنشر قلاعها صعد ابن تاشفين ودعا الله مخلصاً : ((اللهم إن كنت تعلم أن في جواري هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهل عليّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك صعبه عليّ حتى لا أجوزه)) . فهدأ البحر وجازت السفن سراعاً ، ولما نزل أرض الأندلس سجد لله شكراً .

وحارب ألفونسو ملك النصارى عند موضع يسمي الزلاّقة سنة ٤٧٩ هـ بالقرب من بطليوس ، وبعد معارك ضارية استمرت شهوراً انتصر على النصارى ثم عاد إلى إفريقية باراً بوعده للملوك الذين استنجدوا به ألاّ يضم الأندلس إلى ملكه ولكنه ترك حامية من ٣٠٠٠ من رجاله لمعاونة الأندلسيين على عدوهم .

والمرابطون هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير وأشهر هذه القبائل لمتونة وجدالة ولمطة ومن لمتونة كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وقد دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى بن نُصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة لكنهم أحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها .

وفي سنة ٤٨٨ هـ حدث بينهم انبعاث ديني وانبثق فيهم مذهب جديد يدعو إلى الجهاد في سبيل الله وتسمى أصحابه بالمرابطين وكانوا رجالاً من طابع طارق وأصحابه لا تنقصهم الشجاعة وليس للترف إليهم منفذ .

ومن طرائف التاريخ أن الذي يتولى صد الصليبيين في المشرق صلاح الدين بن يوسف بن أيوب سنة ٥٨٥ هـ ، والذي يتولى صد الصليبيين في المغرب يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٩ هـ ، وكان حظ يوسف الأيوبي من الشهرة كان أعلى إذ أنه الأكثر ذكراً في التاريخ ، ولم ينل يوسف بن تاشفين نفس العناية مع أنه أنقذ الأندلس من الضياع في ذلك الزمن .

** ** ** ** ** ** **

. ٧ .

أخلاق الرشيد

كان الرشيد أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب ، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعلة ، ويتصدق من صُلب ماله كل يوم بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده . وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا لغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص . وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن فقال : لئن ظفرت به لأضربن عنقه .

وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه سيما إذا وُعظ ، ودخل عليه ابن السماك الواعظ فبالغ في احترامه فقال له ابن السماك : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك ، ثم وعظه فأبكاه ، وكان يأتي بنفسه إلى بيت التفضيل ابن عياض .

قال عبد الرزاق : كنت مع الفضيل بمكة فمر هارون فقال فضيل : الناس يكرهون هذا وما في الأرض أعزّ عليّ منه ، لو مات لرأيت أموراً عظاماً .

وأما جهاده فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالباً في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب .

قيل : كانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حُسنها أعراس .

وقال الذهبي : أخبار الرشيد يطول شرحها ومحاسنه جمة وله أخبار في اللهو واللذات المحظورة والغناء سامحه الله .

**

محاكم التفتيش

في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ وفي وقت الصباح تم تسليم مدينة غرناطة للنصارى الإسبان الفشتاليين ، وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل قصر الحكم المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً فضياً وبجانبه علم قشتالة وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت مِلكاً للملكين فرديناندوز وزوجه إيزابيلا الكاثولكيين .

وبدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها وحرق من بقى منهم ، وزاد الكردينال كمينسس على ذلك فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة وفيها علوم لا تقدر بثمن بل هي خلاصة ما تبقى من التفكير الإنساني وأحرقها .

وبدأ عصر محاكم التفتيش التي هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية وبأشد وسائل العنف ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية التي أسيغت على سياسة أسبانيا الغادرة ثوب الدين والورع ، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه اعتبرهم نصارى الأسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات فمُزقوا بلا شفقة ولا رأفة ولا رحمة في تموز (يوليو) ١٥٠١ م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته ((إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال)) فهاجرت

جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ومن بقى من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع ؛ فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه يزج به في السجن ، وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة تغص بالحشرات والجرذان يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم .

ومن أنواع التعذيب : إملاء البطن بالماء حتى الاختناق ، وربط أيدي المتهم وراء ظهره وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ، والأسياخ المحمية ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، تمزيق الأرجل وفسخ الفك ... ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه .

وقرار المحكمة لا يمكن استئنافه وهو سجن مؤبد ، أو مصادرة أموال وتهجير أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثولكيين حفلات الإحراق.

ومما يذكر أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها ، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها وهي على هذه الحالة السيئة ولا يمكنها الحراك وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لاسيما إذا ما أرخى الليل سدوله ، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً .

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن فكم فيها من عين باكية وقلب حزين

وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم فيالها من طامة ما أكبرها .

وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا وكان أمر الله قدراً مقدورا .

**

. ٩ .

حركة الترجمة في عهد المأمون

لما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالي قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الإطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين وكان الذي قام بترجمة الكتب له طبيبه الخاص جورجس بن جبرائيل كما ترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب إقليدس في الهندسة وغير ذلك .

فلما كان في زمن هارون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق .

فلما ولى المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوّى حركة الترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل .

وكان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله وقيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ معهم إلى بلاد الروم .

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وكان هناك كثير غير بني شاكر يحذون حذوهم ذلك فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيراً علماً وعملاً ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها .

وقال أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان : حذاق الترجمة في الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندي وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرخان الطبري .

ويعد المأمون لذلك حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التي وُجدت في الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل للمنصور والرشيد .

**

. ١٠ .

تواضع الوليد

زار الوليد بن عبد الملك المدينة ووواليها آنذاك عمر بن عبد العزيز ـ وهما أبناء عمومة وعمر زوج فاطمة أخت الوليد ـ فأخلى الجند المسجد النبوي من الناس بأمر عمر رحمه الله ولكن سعيد بن المسيب التابعي الجليل رفض أن يخرج من المسجد وكان رحمه الله إذا قال : لا ، لا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تثنيه عن عزمه ، وهمس الجند في أذن عمر أن الشيخ يرفض الخروج من المسجد فأشار إليهم أن دعوه ثم جعل عمر يطوف بأمير المؤمنين المسجد ويطلعه على ما تم إنجازه من إصلاحات وترميمات وتوسعة وهو يحاشي أن يصحبه إلى ناحية الشيخ التي اعتاد أن يجلس فيها ، فحانت من أمير المؤمنين التفاتة فرأى الشيخ عن بُعد فقال لعمر : أليس هذا الشيخ سعيد بن المسيب ؟ فقال عمر بارتباك : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم جعل يدافع عن الشيخ ويعتذر عنه قائلاً : يا أمير المؤمنين إنه شيخ كبير وضعيف البصر ولو يعلم أن أمير المؤمنين هنا لقام إليه ..

فابتسم الوليد وقد فهم أن عمر قد خاف على الشيخ ثم توجه للشيخ فسلم عليه ولاطفه بالحديث ثم انصرف وجعل يقول لعمر : هذا بقية السلف .. هذا بقية السلف ...

هذا موقف يُحسب للوليد رغم أنه كان جباراً ظالماً ، قال عمر بن عبد العزيز وكان الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن جبارة بالحجاز وقرة ابن شريك بمصر : امتلأت الأرض والله جوراً !!

لكنه أقام الجهاد في أيامه وفتحت في خلافته فتوحات عظيمة كالأندلس والهند والسند وبلاد ما وراء النهر ، وفي عصره ضربت الجزية على الصين ، في عصره فتح المسلمون أرض الروم ،وحاصروا القسطنطينية .

قال ابن أبي عبلة : رحم الله الوليد ! وأين مثل الوليد ؟ افتتح الهند والسند وبنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة أقسّمها على قراء مسجد بيت المقدس . وفي عصره تم بناء أول مستشفى متخصص في العالم وحدث مثل ذلك في أوروبا بعد هذا التاريخ بثمانمائة عام .

كما يقال أنه كان ورعاً تقياً ؛ حدث أنه عم القحط والجدب في الشمال الإفريقي فقام واليه موسى ابن نصير وصلى بالناس صلاة الاستسقاء وجعل يضرع إلى الله عز وجل ويكثر من الدعاء حتى نزل الغيث ، فسعى أحد الوشاة الحاقدين عليه إلى الوليد وقال له : يا أمير المؤمنين إن موسى لا يعظم قدرك، وأخبره أنه استسقى ودعا دون أن يدعو ولو مرة واحدة لأمير المؤمنين بالتوفيق والسداد ، فغضب الوليد غضباً شديداً وقال للواشي : وهل أُذكر في مقام لا ينبغي أن يُذكر فيه غير الله ؟! لو عدت لمثل ذلك لضربت عنقك !!

ومن كلام الوليد : لولا أن الله ذكر آل لوط في القرآن ما ظننت أن أحداً يفعل هذا .

قال الذهبي : أقام الجهاد في أيامه وفتحت فيها الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب . وقال عمر بن العزيز : لما وضعتُ الوليد في لحده إذا هو يركض بين أكفانه . يعني ضرب الأرض برجله .

**

. ١١ .

بناء القاهرة والجامع الأزهر

بدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم الفاطمي ووضع الأساس لبناء مدينة المنصورية (القاهرة) في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ شمالي الفسطاط وأسس جوهر الصقلي القصر الذي سينزل به المعز لدين الله الفاطمي وعرف باسم القصر الشرقي الكبير . ظلت القاهرة تعرف أربع سنوات بالمنصورية ثم سماها المعز القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية ، وجعل جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب : باب النصر ، باب الفتوح ، باب زويلة ، وباب القوس ، ثم بدأ بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ هـ وتم بناؤه في سنتين وذلك ليكون خاصاً بشعائر المذهب الفاطمي خشية إثارة المصريين إذا ظهرت هذه الشعائر في مساجدهم .. وأقيمت الصلاة في الجامع الأزهر لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ وتحولت الدعوة على المنابر إلى الخليفة المعز ، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلاً من اسم الخليفة العباسي ومنه جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين ، ولم يف الفاطميون بتعهداتهم بعدم إجبار المصريين على تغيير مذهبهم السني إلى مذهب الشيعة ..

فأسندت المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين ، واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم وكان يعرف بداعي الدعاة وكانت منزلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثني عشر نقيباً ونواب في سائر البلاد وكثيراً ما تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة .

وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا بعيد الغدير[1] ويوم مقتل الحسين وتضرر المصريون من ذلك كثيراً .

وفي سنة ٣٥٩ هـ أمر الحاكم بأمر الله بنقش سب الصحابة على الجدران وفي الأسواق ثم تراجع عن ذلك سنة ٣٩٨ هـ ، وظهر الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد ابنته فاطمة وعلي وأذن في جميع المساجد بـ (حي على العمل) فمهد بذلك جوهر للخليفة المعز المجيء إلى مصر ، فدخل المعز مصر في شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، ولما دخل قصره خرّ لله ساجداً وقدمت إليه الهدايا الثمينة العظيمة واتخذت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية .

**

---

(١) بدعة العيد الأكبر أو (غديرخم) وهو المكان الذي أعلن فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ولايته لعلي وهو عيد يفضلونه على عيدي المسلمين ، وصيام هذا اليوم عندهم سنة مؤكدة .

. ١٢ .

فتح القسطنطينية

حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل العهد العثماني عدة مرات يحدوهم في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب أذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي المدينتين تفتح أولاً : أقسطنطنية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مدينة هرقل تفتح أولاً)) يعني قسطنطينية .

لكن كل محاولات المسلمين قبل العهد العثماني باءت بالفشل ، وكانت أول محاولة للعثمانيين لفتح القسطنطينية في سنة ٧٩٨ هـ ولكن وصول تيمور لنك إلى حدود الدولة العثمانية الشرقية اضطر السلطان بايزيد إلى التخلي عن الحصار .. حتى جاء محمد الفاتح أو محمد الثاني الذي كان في ريعان شبابه وزهرة عمره إنه في الحادية والعشرين من العمر ، فتاقت نفسه لفتح القسطنطينية .

بدأ ببناء قلعة على البر الأوروبي تشرف على مضيق البوسفور وتقابلها على البر الأسيوي القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول وبذلك يتحكم في مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية .

وشعر إمبراطور القسطنطينية بعزم السلطان على فتحها فعرض عليه الجزية فرفض السلطان .

ولنلقِ نظرة أولاً على تحصين مدينة القسطنطينية الذي جعل منها مدينة صعبة المنال .

أولاً : هناك المانع المائي المتمثل في بحر مرمرة وحتى مدخل القرن الذهبي عليه سلسلة عظيمة لمنه أو السماح بدخول أي سفينة .

ثانياً : الأسوار التي تحيط بالمدينة من جميع الجهات حتى من جهة البحر ، ومن جهة البر توجد الأسوار العظمى التي يصعب اختراقها .

ثالثاً : الحصن الموجود عند مدخل القرن الذهبي لمقاومة أي عدو .

نعود مرة أخرى لسير الأحداث ، فعندما رفض السلطان محمد الثاني أن يدفع له إمبراطور بيزنكة الجزية في مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية استنجد إمبراطور بيزنطة بنصارى أوربا فأرسلت له جنوة (وهي إحدى الإمارات الأوروبية في ذلك الوقت) ٣٠ سفينة حربية وجاءت في الوقت الذي يحاصر فيع العثمانيون القسطنطينية من جميع الجهات ، فاصطدمت السفن بالأسطول العثماني واستطاع الجنويون التسلل إلى القرن الذهبي ، وحينما حاول العثمانيون اللحاق بهم أغلقت السلسلة في وجوههم بعد أن دخل الجنويون القرن الذهبي .

وجمع محمد الفاتح قواده وقال لهم : ((إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته ، وسيكون لهم من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه ، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدَعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون)) .

وأراد العثمانيون الدخول إلى القرن الذهبي حيث توجد بعض الأسوار الواهية فاتبعوا طريقة لم تخطر ببال أحد وهي أنهم أعدوا ألواحاً خشبية تصل بين البحر في القون الذهبي والبحر عند مدخل مضيق البوسفور ، وألقوا على هذه الألواح الخشبية الدهون والشحوم وأخذوا يزلقون السفن الحربية على الألواح الخشبية من مضيق البوسفور إلى القرن الذهبي ثم أخذت المدافع العثمانية تدك أسوار القسطنطينية من جميع الجهات فلم تستطع المدينة الصمود فدخلوها دخول الأبطال المنتصرين في

فجر يوم ١٥ من جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ وقتل إمبراطورها في المعركة وسيطر العثمانيون على المدينة سيطرة كاملة وأمر السلطان محمد الفاتح أن يؤذن في كنيسة آيا صوفيا إيذاناً بتحويلها إلى مسجد ، ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة آيا صوفيا الآن هي مقر الأرثوذكس العالمي التي تضاهي الفاتيكان مقر الكاثوليك العالمي ، كما أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى إسلام بول (استنبول) أي مدينة السلام ، واتخذت عاصمة للعثمانيين حتى نهاية الخلافة العثمانية ، وبذلك سقطت تماماً الدولة البيزنطية العدو الأول للمسلمين على مدى أكثر من ٨ قرون ، وأمن أهل المدينة النصارى على حرية دينهم وممارسة شعائرهم ، واشترى السلطان نصف كنائس المدينة وحولها إلى مساجد وترك للنصارى النصف الآخر لممارسة شعائرهم تحت ظلال من الحرية والأمن والكرامة .

وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عُثر على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد أثناء محاصرة القسطنطينية في عهد يزيد بن معاوية ، فبعد فتح المدينة بني مسجد في هذا الموقع وغدا تسليم السلاطين مقاليد الحكم في هذا المسجد عُرفاُ متبعاً حيث يتسلم السلطان الجديد سيف (عثمان أرطغول) مؤسس الدولة .

***

. ١٣ .

عين جالوت

قضى الملك المظفر قطز عشرة أشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعماً بل ملأ ساعاتها كلها بجهود تنوء بها العصبة أولو القوة فقد كان عليه أن يوطد أركان عرشه بين عواصف الفت وزعازع المؤامرات ويدبر ملكه ويقضي على عناصر الفوضى ويضرب على أيدي المفسدين والدّساسين ويعالج الأمراء المماليك ، وكان عليه أن يقوي الجيش ويضاعف عَدده وأسلحته وعُدده ويجمع له المؤن والذخائر والأقوات ويُحصِّل لذلك كله الأموال الكافية ، وكان عليه أن يسكن القلوب الوجلة من قدوم التتار وينفخ فيها روح العزم على مقاومتهم على كثرة المخذلين من الأمراء المعوقين عن قتالهم الداعين إلى مسالتهم والخضوع لهم ، لكنه استطاع أن ينزل السكينة والطمأنينة في قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترجف هلعاً من ذكر التتار وأن يبذر فيها الثقة واليقين بأن مصر ستفلح في رد غارات التتار عنها بل طرْدِهم من بلاد الشام كما أفلحت من قبل في رد الصليبيين على أعقابهم .

وحان وقت المعركة فرأى قطز أن يبادر التتار قبل أن يبادروه فجيَّش جيشه وخرج متوجهاً إلى الشام فاستيقظ جيش التتار بقيادة كتبغا على صهيل جيش قطز تملأ عليهم سهل البقاع .

وفي رمضان سنة ٦٥٨ هـ كانت عين جالوت ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم وكثير من أهل بيته وأمر قطز الأمير بيبرس البنداقداري أن يتبع الجيش المنهزم فأتبعوهم حتى وصلوا إلى حلب ...

وخر الملك المظفر ساجداً لربه شاكراً لما اجتباه من أنعمه ثم هب واقفاً والدموع تنحدر على خديه وخطب في جيشه قائلاً : ((أيها المسلمون : إن لساني يعجز عن شكركم والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى ، لقد صدقتم اللهَ الجهادَ

في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم قال الله عز وجل : ((يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)) محمد:٧ ، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه وأن الله ورسوله يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ... ((ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون)) آل عمران : ١٦٩ . ١٧٠ .

...

وأما ما كان في دمشق من التتار فقد فروا هاربين وتبعهم المسلمون من أهل دمشق يقتلونهم ويستخلصون الأسرى من بين أيديهم وأسقط في أيدي النصارى الذين أيدوا التتار وهاجم المسلمون الكنيسة التي يخرج منها الصليب وأحرقوا بيوت النصارى الذين أجبروهم على القيام للصليب ، وقتل المسلمون رجلاً رافضياً كان عوناً للتتار على الاستيلاء على أموال المسلمين .

ونجح بيبرس أن ينتزع أكثر إمارات الشام من أيدي بني أيوب فوعده قطز بولاية حلب ولم يستطع أن يفي بوعده فقتله بيبرس وهم عائدون وتولى من بعده أمر مصر .

***

. ١٤ .

محمد علي والياً على مصر

وُلد محمد علي في بلدة قولة بإقليم مقدونيا شمال بلاد اليونان ، وجاء إلى مصر مشاركاً في الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين وأظهر كفاءة في القتال حتى أصبح قائداً للفرقة الألبانية . وأدرك مدى كراهية الشعب المصري للعثمانيين والمماليك فاستغل ذلك وتقرب من الشعب وظل بمصر حتى بعد رحيل الفرنسيين عام ١٨٠١ هـ .

اتصف بالدهاء وسعة الحيلة ، وفي ذلك الوقت قام الشعب المصري بثورتين :

الأولى : ضد البرديسي أحد زعماء المماليك بسبب نهب المماليك لأموال الشعب والمبالغة في فرض الضرائب وانحاز محمد علي إلى الشعب وتخلصوا من البرديسي .

الثانية : ضد خورشيد باشا الوالي العثماني عام ١٨٠٤ م بسبب فرض ضرائب جديدة على أصحاب الحرف والصناعات .

طلب خورشيد باشا من الحكومة العثمانية قوة عسكرية لمساعدته في مصر فقامت هذه القوة بأعمال السلب والنهب أمر محمد علي جنده بعدم الاشتراك في هذه الأعمال .

طلب زعماء الشعب من خورشيد عدم فرض ضرائب جديدة إلا بعد موافقة العلماء وجلاء الفرقة التركية عن مصر لكن خورشيد رفض .

فاجتمع زعماء الشعب في بيت القاضي وقرروا عزل خورشيد وتعيين محمد علي ، وتوجه السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي إلى دار محمد علي بالأزبكية في ١٣ مايو ١٨٠٥ م وقال له : ((لقد اخترناك بدلاً منه بشرط أن تسير في الحكم بالعدل ألاّ تبرم أمراً دون مشاورتنا وإذا خالفت هذا الشرط عزلناك)) وبذلك تولى محمد علي ذهب وفد إلى القلعة لتبيلغ خورشيد ولكنه رفض قائلاً : أنه معين من طرف السلطان ولا يعزل بأمر من الفلاحين .

حاصر الشعب القلعة ولكن محمد علي لم يشارك في الحصار وصدر فرمان في ٩ يوليو ١٨٠٥م بعزل خورشيد وتعيين محمد علي والياً على مصر .

لكن حكم محمد علي لمصر كان نجاحه مرهوناً بالنجاح في ثلاث مهام وهي :

. التغلب على محاولة عزله عن مصر حيث ضغطت انجلترا على السلطان العثماني لعزله لتجعل حكم مصر في يد حلفائها من المماليك لكن الشعب تمسك بمحمد علي فظل والياً على مصر .

. توفير المال حيث كان محمد علي في احتياج للمال لدفع مرتبات الجند وتقديم الهدايا للباب العالي ، وتغلب على هذه المشكلة بأن قام كبار المشايخ والأعيان بجمع الأموال اللازمة دون أن يتعرض هو لغضب الشعب وثورته .

. التغلب على الحملة الإنجليزية على مصر بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ م وقد قاوم الشعب تلك الحملة ونجح العلماء في عقد صلح بين محمد علي والمماليك (الذين كان يحاربهم في الصعيد عندما بلغته أنباء الحملة الإنجليزية) وتضمن هذا الصلح عدم انحياز المماليك للإنجليز مقابل أن يُمنح المماليك حكم الوجه القبلي مع دفعهم الخراج .. وأرسل فريزر إلى محمد علي طالباً الصلح فسافر محمد علي إلى الإسكندرية وعقد معاهدة مع الإنجليز في سبتمبر ١٨٠٧ م نصت على جلاء الإنجليز عن مصر مقابل استرجاعهم أسراهم وجرحاهم.

...

لم يفِ محمد علي بما تعهد عليه للشعب فأراد أن ينفرد بالحكم لنفسه فعمل على التخلص من منافسيه وفي سبيل ذلك قام بالقضاء على الزعامة الشعبية وذلك بسبب القيود التي فرضوها عليه وخاصة بعد أن جعلوه يتراجع عن الكثير من الضرائب ، وقد نجح في التخلص منهم . كما قرر التخلص من المماليك لأنهم شكلوا خطراً كبيراً عليه لاعتقادهم أنهم هم أصحاب البلاد وأنه اغتصب السلطة منهم فلم تُجد محاولاته السلمية في السيطرة عليهم فدبر لقتلهم جميعاً في مذبحة

القلعة الشهيرة حيث انتهز فرصة خروج جيشه للقضاء على الحركة الوهابية وأقام حفلاً في القلعة دعا إليه أمراء المماليك وأتباعهم وهناك انهال عليهم جنود محمد علي بالرصاص وقضوا عليهم فيما عُرف باسم مذبحة القلعة في أول مارس ١٨١١ م كما نشر محمد علي جنوده في الأقاليم لقتل كل من يجدونه منهم ، ولم ينج منهم سوى عدد قليل هربوا إلى بلاد النوبة وبلاد الشام .

وبالقضاء على المماليك أصبحت السلطة كلها في يد محمد علي وبدأ يرسم الخطط لإقامة الدولة الحديثة في مصر.

...

محمد علي في وصف المؤرخين :

.كان محمد علي شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة والغلظة ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التي تتأخر في دفع ما يفرض عليها من المال فيعسكر هو أفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة إن أثقلتهم وكان محباً للعظمة إلى حد الجنون .

ووصفه الجبرتي فقال أنه مخادع وكذاب يحلف الأيمان الكاذبة ظالم لا عهد له ولا ذمة يضمر السوء ويستخدم العنف والعسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ وقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه تعلم على فكر ميكافللي صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة ، وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة وإلى حد الجنون وقسوة القلب والنظر إلى الذات وعدم المبالاة بالإسلام هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودولة الخلافة من داخلها.

****

. ١٥ .

ملامح رئيسية في شخصية صلاح الدين

من أهم الملامح في شخصية الناصر صلاح الدين الأيوبي :

- . تقريبه للعلماء وحبه واحترامهم واستشارتهم وإعطاؤهم المكانة اللائقة بهم وإحياء المدارس والعلم ، وحضور السلطان مجالس العلم بل أنه يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي . ومن أهم الفقهاء في عهده وزيره القاضي الفاضل الذي كان من أكابر الكُتَّاب محباً للعلم و أهله ، ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي ، والفقيه الشافعي الذي بنى له صلاح الدين مدرسة وفوّض تدريسها إليه . قال القاضي ابن شداد : ((كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة وكان يفعل ذلك سفراً وخصراً))
- وكان آل المقدسي الذين سكنوا حي الصالحية بدمشق أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني والشيخ العماد ، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها . إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم وإعزازهم في هذا الدين.
- . ومن الملامح الواضحة في شخصية صلاح الدين شغفه بالجهاد ، قال القاضي ابن شداد : ((وكان . رحمه الله . شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ، ولقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا لمن يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد أهله وولده ووطنه وسكنه .... اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه ، وأما صبره فلقد رأيته

بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت له من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر وهو صابر على شدة الألم ويقول : ((إذا ركبت يزول عني الألم حتى أنزل)) !! فليكن غاية شبابنا النظر إلى أصحاب الهمم العالية أمثال صلاح الدين ونور الدين وقبلهما سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين الطيبين لا ماوتسي تنج في الصين وجيفارا في أمريكا اللاتينية !!

- . ومن أهم سماته الشخصية حرصه على العدل وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم .
- . زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، وحتى إلى أعدائه ، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله ومركبه ، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف .
- كان مهتماً بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام .
- كان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة يقال أنه لم تفته صلاة قبل وفاته بدهر طويل حتى ولا في مرض موته ، كان يدخل الإمام فيصلي به وكان يتجشم القيام مع ضعفه.
- كان رقيق سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم والحديث الشريف .
- كان ضحوك الوجه كثير البشر لا يتضجر من خير يفعله شديد المصابرة على الخيرات والطاعات .

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين .

***

. ١٦ .

السلطان عبد الحميد واليهود

. بويع السلطان عبد الحميد بالخلافة بعد أخيه مراد يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين عاماً .

. إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثاني واليهود من أهم الأحداث في تاريخ السلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثاني .

. كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش إلا أنهم سعوا للاستقرار في تركيا ونجحوا في ذلك وطبقت عليهم أحكام الشريعة الإسلامية الغراء حيث تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتغلغلوا بعدها في المراكز الحساسة في الدولة دون جوزيف ناسي وغيره ، وتمتع يهود أسبانيا بشيء كبير من الاستقلال وأصبح رئيس الحاخامين مخولاً له السلطة في الشئون الدينية والحقوق المدنية بحيث إن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قِبل الحكومة إلى درجة تحولت إلى قانون يخص اليهود . لقد تمتعوا بكل الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة ، ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية .

. رغم كل ذلك سعى اليهود إلى الاستيلاء على فلسطين واستطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبي للمسألة اليهودية من دول (ألمانيا ، وبريطانيا ، وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد وطلب فلسطين منه .

. وبعد اتصالات عديدة من هرتزل مع الدولة الأوروبية من أجل مقابلة السلطان عبد الحميد قام بالفعل بزيارة إلى القسطنطينية في حزيران ١٨٩٦م ورافقه في تلك الزيارة نيولنسكي الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد ودارت محاورة

بين نيولنسكي والسلطان عبد الحميد كالآتي

:

قال السلطان : هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين ؟

فأجاب نيولنسكي : تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود ، وعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها .

- إن فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط إنما تعتبر مهداً لكل الأديان الأخرى .
- في حالة عدم استرجاع فلسطين من قِبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة إلى الأرجنتين .
- انصح صديقك هرتزل أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع لأني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ورووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت دولتي ، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة .

إزاء هذا الإخفاق حاول هرتزل لقاء السلطان بنفسه إلا أنه مُنع من مقابلته ، واقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوربا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين بالإضافة إلى ذلك فإنه قد أكد لعبد الحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام ١٨٨١م ، كما وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه !!

. إلا أن هرتزل أخفق في كل محاولاته لإقناع السلطان وكتب في مذكراته : أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آنٍ واحد .

. إن عبد الحميد كان يعرف أهداف الصهيونية حيث قال في مذكراته السياسية : ((لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره ... وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)) .

((لماذا نترك القدس .. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية .. لابد أن تظل القدس لنا)) .

. واتخذ السلطان عبد الحميد كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين وفي سبيل ذلك عمد جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين .

. ولابد في سبيل ذلك أن تتكاتف الجهود من المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد عن الحكم ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال :

((إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه)) .

وتحركت الصهيونية العالمية لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد وهم المتمردون الأرمن ، والقوميون في البلقان ، وحركة حزب الاتحاد والترقي ، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية .

***

. ١٧ .

الجامعة الإسلامية

اهتم السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية ، وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط أفريقيا وغيرها ، وحتى إيران ، وقال : ((عدم وجود تفاهم مع إيران أمر مؤسف ، وإذا أردنا أن نُفوِّت الفرصة على الإنجليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر)) .

ويقول عن إنجلترا أنها تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية ((الإنجليز قد أفسدوا عقول المصريين لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوربية ، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية إلى هز عرشي)) .

((إن إنجلترا تعمل لهدفين : إضعاف تأثير الإسلام ، وتقوية نفوذها لذلك أراد الإنجليز أن يكون الخديو في مصر خليفة للمسلمين ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديو أميراً للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبع بطابع الكفار)) .

((إن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونايين وزنوج وعناصر أخرى ، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة)) .

((يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة .. ووقتها لم يحن بعد .. لكنه سيأتي ، سيأتي الوقت الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار)) .

.كانت فكرة الجامعة الإسلامية في نظر السلطان عبد الحميد يمكن أن تحقق أهدافاً منها :

١. مواجهة أعداء الإسلام المثقفين بالثقافة الغربية والذين توغلوا في أجهزة الدولة الإسلامية وإيقافهم عند حدهم بوجود الجامعة الإسلامية .

٢. محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا عند حدها عندما تجد أن المسلمين قد تكتلوا في صف واحد وقد فطنوا إلى أطماعهم ووقفوا ضدها بالوحدة الإسلامية .

٣. إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية يحسب لها حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي ـ الأوروبي النصراني .

٤. تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة في الميادين كافة وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درساً تاريخياً .

. ولذلك استخدم السلطان عبد الحميد كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت من :

- ❖ اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي من العلماء والمبرزين في مجالات السياسة .
- ❖ اتخاذ الدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة للالتقاء بالشعوب الإسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان
- ❖ نشر العلوم الإسلامية ومراكز الدراسة الإسلامية في الداخل والخارج ، وطبع الكتب الإسلامية الأساسية .
- ❖ محاولة اتخاذ اللغة العربية ـ لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية ـ لغة للدولة أو تعريب الدولة العثمانية .

❖ العناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها والقيام بحملات تربع لإحياء المساجد في العالم

❖ الاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية .

❖ استمالة زعماء القبائل العربية وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل وتدريبهم على الإدارة .

❖ استمالة شيوخ الطرق الصوفية .

❖ الاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة .

❖ العمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية ، وتحديث الدولة فيما هو ضروري .

. وقد التفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الإسلامية إلى دعوة الجامعة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني ومصطفي كامل من مصر ، وأبي الهدي الصيادي من سوريا ، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبريا ، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرها .

...

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني في إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعي لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك استطاع أن يحقق هدفين :

. تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية ، الاستعمارية النصرانية .

. وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوربية وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

***

. ١٨ .

رحلات في طلب العلم

من أهم مظاهر الحضارة في عصور نهضة الأمة الإسلامية الرحلات ، فقد أصبح تقليداً للعالم أن يرحل ويلاقي العلماء ويأخذ منهم ويروي عنهم مع عناء الأسفار وفقر العلماء غالباً .

وقد بلغ الغاية في ذلك المحدثون فقد كانوا في حركة دائمة يرحلون من أقصى الأرض إلى أقصاها لطلب الحديث وجمعه ، وما يشتهر عالم بالحديث في بلدة حتى يرحل إليه العلماء من كل صوب مثال ذلك إسماعيل البخاري يرحل من بخاري إلى مدن خراسان إلى الجبال إلى العراق ومدنه كلها إلى الحجاز إلى الشام إلى مصر ، وفي كل مدينة يتحرى حالة علمائها ويأخذ عمن وثق بهم ، وليس البخاري إلا مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة لا تحصى ، فقلّ أن تجد محدثاً كبيراً إلا رحل هذه الرحلات وأمثالها حتى قد يقطع المحدّث المسافات الواسعة لرواية حديث واحد وضبطه ، وتقرأ تراجم العلماء في كتاب كتاريخ بغداد فيأخذك العجب من نشاط العلماء ورحلاتهم واحتقارهم لمشاق السفر ومتاعب الفقر في سبيل العلم ومعرفتهم كل مِصر وكل بلدة ومن فيها من العلماء وما فيها من حديث .

وليس الأمر مقصوراً على المحدثين فهكذا كان الشأن في كل علم وكل فن فأبو جعفر النحاس يذهب من مصر إلى العراق ليأخذ النحو على أهلها وابن بابشاذ المصري يذهب إلى بغداد في تجارة الجواهر ويأخذ النحو عن رجالها ، ومن بالقيروان يذهب إلى المدينة ليأخذ عن تلاميذ مالك ، وإلى العراق ليأخذ عن تلاميذ محمد بن الحسن ، ويسمع الأدباء والشعراء بسيف الدولة فيكون في بلاطه الخوارزمي وأبو علي الفارسي وابن جني الموصلي ، والمتنبي يوماً بحلب ويوماً بمصر ويوماً بالعراق ويوماً بشيراز ...

وإذا فُتحت بلدة فسرعان ما يذهب إليها العلماء في الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الإنتاج العلمي كالذي رأيناه في صقلية تفتح فيرحل إليها العلماء وتدوي فيها حركة العلم ، وبعد قليل نراها مركز إنتاج علمي وأدبي عجيب .

والحكومات من جانبها تنشئ الطرق وتقيم الرباطات والمخافر لحاجتها الشديدة إلى تنظيم البريد وتسهيل التجارة ؛ فكان العلماء ينتفعون بهذه المزايا كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل إلى الحج فينتظمون في سلك الحجاج ويرحلون إلى البلدان التي يريدونها .

كل هذا جعل المملكة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان لا يعبأون بالحدود التي ترسمها السياسة ويرون أن اللغة والدين تكسر حواجز السياسة .

***

. ١٩ .

الخليفة المهتدي والأتراك

كان المهتدي من صالح بني العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به ، إلا أن كثيراً من زعماء الجند الأتراك ثاروا عليه وأكثروا من مصادرة الناس في أموالهم ، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنياً ، صادروا الكتاب وصادروا الأمراء الكبار وأخيراً صادروا زوجة الخليفة المتوكل رحمه الله وهي أم المعتز بعد أن قتلوا ابنها وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافوراً ، وكان لها أموال كثيرة فهربت إلى مكة وسُمعت وهي تدعو بصوت عال تقول : اللهم اخز صالحاً (صالح بن وصيف التركي) كما هتك ستري وقتل ولدي وشتت شملي وأخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني .

دبر الأتراك لقتل المهتدى لأنه لم يعجبهم في نزعته وانتشر الخبر في العامة أنهم قد اتفقوا على خلع المهتدي والفتك به وأنهم قد أرهقوه فكتب العامة الرقاع ورموها في الطرق والمساجد مكتوباً فيها : ((يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤونة ظلمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه)) .

وخطب المهتدي في الأتراك وهددهم ولكن ذلك لم يُجدِ معهم شيئاً كما أراد أن يضرب بعضهم ببعض حتى يخلص منهم جميعاً ولكنه لم ينجح في هذا أيضاً ودارت الدائرة عليه فقتلوه .

ومع هذا فقد كان لحركة المهتدي أثر في استرداد البيت العباسي بعض سلطانه ، وكان من أسباب ذلك أيضاً انتقال الخليفة من سامرا وهي حصن الأتراك إلى بغداد وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمي الخلافة من شرورهم ، ولذلك رأينا سلسلة من الخلفاء بعده يقبضون على كثير من السلطان ويموتون حتف أنوفهم .

وهناك رواية أخرى لما حدث للمهتدي تقول :

لقد كانت ثورة من الجند على قادتهم ولكنها غير منظمة ، ولو وجدت هذه الثورة خليفة قوياً وانتهزها المهدي للتخلص من نفوذ الإدراك ولكنه لم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود .. وقامت فتنة ومعركة بسبب أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فكشفوا أمره ، كانت المعركة فريقين : فريق الناقمين على الأتراك من العامة والموالي من غير الأتراك من ناحية ، وبين الأتراك من ناحية أخرى وخرج الخليفة المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته ولكن الأتراك انتصروا .

وقبضوا على المهتدي وحملوه إلى دراه مهاناً في ١٤ من رجب سنة ٢٥٦هـ ثم خلعوه لما أبي أن يخلع نفسه ثم مات في ١٨ من رجب سنة ٢٥٦هـ

. ومن قبل المهتدي منذ الخليفة المنصر بن المتوكل بن المعتصم زادت قوة الأتراك في الدولة لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة المتوكل وهو عليل ، دخلوا عليه فقتلوه وكان ذلك بداية لعهد تمكن نفوذ الأتراك .

***

. ٢٠ .

الأتراك مع خلفاء بني العباس

زادت قوة الأتراك في الدولة لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة ، وكانوا لا يحبون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فلم يزالوا بالمنتصر حتى أجبر أخويه على أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد وبذلك وصل عجز الخليفة مداه تحت ضغط عسكر الأتراك ، ويبدو أنه ندم على قتل أبيه فإنه لا يزال يؤنب نفسه في يقظته ومنامه ويبكي ليلاً ونهاراً ندماً على فعلته وهَمَّ بالانتقام من قتلة أبيه ولكنه لم يستطيع ووافته المنية في ٥ من ربيع آخر سنة ٢٨٤هـ .

ثم اختار الأتراك المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد فكان أول خليفة من بني العباس لم يكون أبوه خليفة بعد مؤسسي الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه .

وظل القواد الأتراك على حالهم مع الخليفة من حيث تدخلهم في أمور الحكم فهم يولون ويعزلون ولا يجدون من يحاسبهم .

وفي سنة ٢١٥ هـ وقعت فتنة عظيمة بين جند بغداد وجند سامراء ودعا أهل سامراء إلى بيعة المعتز وكان مسجوناً فأخرج واستقر أمر أهل بغداد على بيعة المستعين فصارت بغداد في جانب المستعين وسامراء في جانب المعتز وانضم الأتراك إلى معسكر المعتز وجرت بين الطرفين حروب طويلة وفتنة مهولة جداً حتى خُلع المستعين وبويع المعتز بالخلافة .

وبالطبع أثرت هذه الخلافات على الأحوال الخارجية للبلاد واستطاع الروم أن تُنزل الهزائم بالمسلمين وقتلوا قائدين عظيمين للمسلمين من قواد الثغور هما عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحي الأرمني .

ثم خُلع المعتز بسبب أن الجند اجتمعوا فطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم فاجتمع الأتراك على خلعه فأرسلوا إليه ليخرج إليهم فاعتذر بأنه شرب دواء وأن عنده ضعف ولكن ليدخل إليّ بعضكم فدخل إليه بعض الأمراء فتناولوه يضربونه وجروا برجله وأخرجوه وعليه قميص مخرق لطخ بالدم فأقاموه في وسط دار الخلافة في حر شديد حتى جعل يراوح بين رجليه من شدة الحر وجعل بعضهم يلطمه وهو يبكي ويقول له الضارب :

اخلعها ، والناس مجتمعون ، ثم أدخلوه حجرة مضيقاً عليه ومازالوا عليه بأنواع العذاب حتى خلع نفسه عن الخلافة وولى بعده المهتدي بالله .

ثم سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام حتى جعل يطلب شربة ماء فلم يُسقَ ، ثم أدخلوه سَرَباً فيه جص جير فدسوه فيه فأصبح ميتاً فاستلوه من الجص سليم الجسد وأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنه مات وليس به أثر .

***

. ٢١ .

الفلسفة والفارابي

لم يكن العرب يعرفون الفلسفة لأنها ليست من طبيعتهم ، إنما عرفوها بعد أن اختلطوا باليونان والفرس والهند والروم ونقلوا إليهم كتبهم الفلسفية .

وقد تنقلت الفلسفة الإسلامية في أدوار ثلاثة : الدور الأول نتف فلسفية من هنا وهناك كالذي يحكي عن خالد بن يزيد الأموي ونحوه ، والثاني النقل المنظم من كتب فلسفية منسوبة إلى مؤلفيها كالذي كان في عصر المأمون ومن بعده ، والدور الثالث هو الدور الذي وضحت فيه هذه العلوم وبدأ فلاسفة الإسلام يتفهمونها ويعلقون عليها ويزيدون فيها .

وأول ما بدأت الفلسفة في الإسلام بدأت النواحي العملية منها كالطب والتنجيم لحاجة الملوك والشعوب إليها كالذي قاله الغزالي : ((أردنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا الله)) وهكذا بدأت الفلسفة لسد الحاجة من طب وتنجيم وانتهت بحب البحث المجرد .

وكان من أشهر الفلاسفة الفارابي وإخوان الصفا والبيروني وابن سينا ، فأما الفارابي فكان من أصل تركي وهو أول فيلسوف إسلامي نظر إلى الفلسفة نظرة شاملة كاملة ، كان الكندي قبله فيلسوفاً ، وتحدث إلى المعتزلة كالنظّام والجاحظ وأبي هذيل العلاف في مسائل من صميم الفلسفة ولكن أحداً منهم لم يعرض الفلسفة عرضاً وافياً قبل الفارابي ، وأتى من بعده كابن سينا وابن رشد فحذا حذوه فلئن قالوا عن الكندي أنه المعلم الثاني فالأولى بهذا اللقب الفارابي .

وقد كان للفارابي ثلاثة منابع يستمد منها فلسفته فالفلسفة اليونانية وخاصة مذهب أفلاطون وأرسطو ، والديانة الإسلامية ، والعقل الذي يوفق بين الفلسفة اليونانية بعضها مع بعض من جهة ، وكلها مع الإسلام من جهة أخرى .

وهذا التوفيق يحتاج إلى عقل كبير قوي لأن الفلسفة اليونانية مذاهب مختلفة جداً يصعب التوفيق بينها ولأن عماد الفلسفة العقل المطلق وعماد الدين القلب ، ومن أظهر الأمثلة على ذلك من النوع الأول كتابه : ((الجمع بين رأيي الحكيمين)) يعني أفلاطون وأرسطو ، ومن النوع الثاني أنه ألف كتابه ((آراء أهل المدينة الفاضلة)) فحاكى في أجزاء كثيرة منها أفلاطون في جمهوريته وأبعد منها ما يتفق مع الإسلام اتفاقاً واضحاً .

وأدى تعمق الفارابي في التوفيق بين الفلسفة والدين أن يضع نظرية النبوة ، يدعي في النبوة أمراً جديداً يثبته بالعقل الفلسفي ذلك أنه ربط النبوة بالأحلام وجعل الأحلام والنبوة راجعين إلى القوة المخيلة في الإنسان وربما أوحى إليه بذلك الإسلام نفسه فقد جعل الإسلام الأحلام الصحيحة إرهاصاً للنبوة ، وفي الحديث : ((أول ما بدأ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان النبي إذا رأى الرؤيا جاءت مثل فلق الصبح صحيحة)) .

وعيب هذه النظرية ربط النبوة بالخيال كأن ما يراه النبي متخيل وربما عُد أيضاً من عيوبها وإن كان غير واضح عد ما يراه النبي وما يدعو إليه من قبيل الخيال لا من قبيل رؤية الواقع وهذا يضعف من شأن النبوة .

ومع ذلك جرى على نظرية الفارابي هذه ابن سينا وابن رشد وبعض الشيعة في رسائلهم وإخوان الصفا والمتصوفة وقد نشأ من اعتقاد المتصوفة بهذه النظرية إعلاء شأن الأولياء حتى قاربوا الأنبياء ، ولما لم يكن الغزالي فيلسوفاً وكان سُنِّياً لم يرض عن نظرية الفارابي وفندها في كتابه تهافت الفلاسفة فقال : ((إن النبي يستطيع الاتصال بالله مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة دون حاجة إلى قوة متخيلة خاصة أو أي فرض آخر من فروض التي يفترضها الفلاسفة)) .

وعلى كل حال كان لنظرية الفارابي هذه في النبوة أثر كبير في المسلمين فقلدوها وأعادوها وشرحوها أو ردوا عليها وفندوها .

فنحن إن قلنا : إن الفلسفة الإسلامية وضعت أصولها على يد الفارابي في القرن الرابع ولم يكن ما جاء بعدها في القرن الخامس وما بعده إلا شرحاً وتفسيراً وتعليقاً لم نبعد .

وعلى جملة فلو جمعت كتب الفارابي ورُتبت وبُوبت لكان منها دائرة معارف فلسفية واسعة، فما وضعه الفارابي من أسس فلسفية أكثر مما وضعه ابن سينا وابن رشد وأمثالهما .

***

. ٢٢ .

مسألة خلقِ القرآن

نشأ علم الكلام في زمن المأمون وترعرع ، وعلم الكلام علم يبحث في أصول الدين والعقائد ويعتمد على العقل ، وظهرت المعتزلة وشيخهم إبراهيم بن سيار (النظّام) ونتيجة لذلك ظهر خلاف بين أهل السنة والجماعة الذين يعتمدون في علوم العقائد على النقل وبين المعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل ومنها المسألة المشهورة : هل القرآن كلام الله القديم أم هو مخلوق ؟

وهي مسألة على بساطتها لكنها سبب في ابتلاء كثير من العلماء على يد المأمون ومن بعده على يد المعتصم لاعتناقهما المذهب الذي يقول : إن القرآن مخلوق خلافاً لأهل السنة والجماعة ..وأباح المأمون المناظرات بحرية مطلقة ، ومن طول المناظرات اقتنع المأمون تماماً بالقول بخلق القرآم مخالفاً بذلك جمهور علماء أهل السنة والجماعة ، وكان يظن أنه حين يظهر رأيه للعلماء أنهم سيجيبونه إلى رضاهم بمذهبه ، ولكن النتيجة كانت عكس ذلك فتكلموا فيه واتهموه بالابتداع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في إلزام الفقهاء برأيه وهو غير محق في ذلك وكان في هذه السنة غازياً في بلاد الروم فبعث إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع الفقهاء ويمتحنهم في آرائهم في هذه المسألة ، فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من العلماء فكان مما دار بينه وبينهم :

قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال : أقول القرآن كلام الله ، قال : أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : أما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق هو ؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أسالك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير

المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت ، فبعث إسحاق بإجابات العلماء عالماً عالماً فاغتاظ المأمون منها فأمره أن يأخذهم بالتهديد ففعل إسحاق فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح .

يروي ابن كثير: ((لما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له إسحاق : أتقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا ، إلى أن قال : ((وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعةً مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق من بيت المال قُطع ، وإن كان شيخ حديث روع عن الإسماع والأداء ، ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله)) فوجه إسحاق بأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح إلى طرطوس حيث يغزو المأمون الروم ، إلا أن المأمون ما لبث أن قُبض .

وإن من مفاخر التاريخ أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة خلق القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدوا ذلك عيباً من عيوبهم لأن العالم الذي لا يتحمل الأذى أو الجود بالنفس في سبيل اعتقاده لا يعد عالماً ، ومن ثم رأينا الذين ثبتوا في المحنة مثل الإمام أحمد بن حنبل نالوا من التكريم والعناية والفضل ما لا مزيد عليه وزادته المحنة تشريفاً وذكراً في التاريخ : قال الخلاّل : سمعت عبد الوهاب الورّاق يقول : ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية ولا في الإسلام شهد جنازة مثل جنازة أحمد بن حنبل ، فقد مُسح وحزر الموضع الذي صلى فيه صلاة الجنازة فإذا هو نحو من ألف ألف وحرزنا على القبور نحو من ستين ألف امرأة ونظروا من صلوا العصر في مسجد الرصافة فكانوا نيفاً وعشرين ألفاً .

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز .

وعن أحمد بن داود قال : رفعنا جنازة أحمد بن حنبل مع العصر ودفناه مع المغرب من كثرة الزحام .

ويقول الخلال : سمعت عبد الوهاب يقول : أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السُنة والطعن على أهل البدع فسَر اللهُ المسلمين بذلك على ما عندهم من المعصية لما رأوا من العز وعلو الإسلام وكبت أهل الزيغ .

وقد كاد إمام المحدثين البخاري يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول : ((لفظي بالقرآن مخلوق)) ، وكان البخاري ممن يقول بذلك ، فاضطهده محمد بن يحي الذهلي إمام المحدثين بنيسابور حتى فرج البخاري عنها خوفاً من العامة أن تبطش به .

لكن ورد عن البخاري قوله : ((حركات العباد وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق ، قال الله تعالى ((بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)) العنكبوت ٤٩ ، وقال أيضاً : ((القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر)) .

ولم يكتف المأمون بما كان في حياته بل أوصى أخيه المعتصم الذي استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته في القرآن فلم يجد المعتصم بُداً من أن يتبع هذه الوصية فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول بخلق القرآن فصمم على إنكار ذلك ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الحبوس وهو صابر محتسب .

واستمرت هذه المحنة حتى في زمن الخليفة الواثق الذي قتل بيده أحمد بن نصر لأنه قال إن القرآن كلام الله ولم يزد على ذلك ، وصلب جسمه بسامراء وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي وجعل في أذنه رقعة فيها " هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفى التشبيه

وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه .

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه ، وانتقلت المسألة من الجد إلى الهزل ودخل عبادة المضحك على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن ! قال : ويلك القرآن يموت ؟! قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟ فضحك الواثق وقال : قاتلك الله أمسك .

وجئ الواثق بشيخ موثق فسأله ابن أبي داؤد عن قوله في القرآن فقال له الشيخ : هذا الذي تقوله يا ابن أبي داؤد من خلق القرآن شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أو جهلوه ؟ فقال : بل علموه . قال : فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟ قال : بل سكتوا ، قال : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت .. فسكت ابن أبي داؤد وأعجب الواثق بكلامه وأمر بإطلاقه وقام وهو يقول : هلا وسعك ما وسعهم .. يكرر هذه الكلمة .

وبهذا خمدت الفتنة وجاء المتوكل بعد الواثق فأمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسناً فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته .

أما المأمون مبتدع الفتنة فقد كان يمكن أن يكون من خيار الخلفاء لولا هذه السقطة وقوله بأفضلية على بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين . قال عنه ابن كثير بعد ذكر فضله وحسن سيرته : وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة .

***

. ٢٣ .

وامعتصماه !

كانت وصية المأمون للمعتصم : ((احمل الناس على القول بخلق القرآن ، والخرمية فاغزهم بقوة وحزم وجلد واحشد لهم الأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه)) .

لذلك انصبت جهود المعتصم وأموال الخلافة على القضاء على حركة بابك .

كان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم ، عاث في الأرض وأفسد وأخاف الإسلام وأهله وغلب على أذربيجان وغيرها وأراد أن يقتم ملة المجوس وادعى الألوهية وأراد تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس فأثار ومن تبعه حرباً شعواء على الإسلام والعرب .

فأرسل المعتصم الأفشين أعظم قواده حينئذ لمقاتلة بابك والقضاء عليه بَيد أن الأمر طال رغم أن المعتصم أنفق على هذه الحرب الكثير ، وأقام المعتصم البريد على مسافات قريبة ليأتيه خبر المعركة كل يوم ، وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة ٢٥٠٠٠٠ إنسان ، وكانت نهايته في هذه المعركة .

كان بابك قد كتب إلى حليفه تيوفيل ملك الروم عندما ضيق عليه الأفشين ، يستنصره ويقول له : إن الفرصة مهيأة للانتصار على المسلمين ...

تأخر ملك الروم في التحرك فلم يتحرك إلا بعد ما قُتل بابك فتحرك ملك الروم سنة ٢٢٣هـ وانقض على مدينة زِبَطرة وأعمل فيها السيف وقتل الصغير والكبير وسبى النساء بعد ذبح أطفالهن ، وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه وبلغه أن هاشميته صاحت وهي في أيدي الروم : وامعتصماه ! فأجاب وهو على سريره : لبيك لبيك ، ونادى بالنفير العام ونهض من ساعته ، وعندما سار المعتصم باتجاه

الثغور لتأديب تيوفيل تساءل قائلاً : أي بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهي أصل النصرانية وهي أشرف من القسطنطينية ، فسار باتجاهها بجهاز عظيم من السلاح والعدد وآلات الحصار والنفط ، ودارت المعركة بقيادة المعتصم ، وبعد حصار دام ٥٥ يوماً من سادس رمضان إلى أواخر شوال سنة ٢٢٣ هـ دك عمورية واستنقذ المرأة الهاشمية .

وأنشد بعدها أبو تمام قصيدته المشهورة في وصف المعركة وملابساتها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب

في حده الحد بين الجِد واللعب

وكان عدد جيش المسلمين ١٥ ألف فارس وجيش الروم ٢٠٠٠٠٠ فارس وراجل .

لكن المعتصم أدخل العباسيين بلاء عظيماً هو استعانته بالجند الأتراك حتى قال المؤرخون : ((إن المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هؤلاء على الأمر ، لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا ؟))

يروى أن أهل بغداد اشتكوا إلى المعتصم إساءة غلمان الأتراك وقالوا له : تحول عنا وإلا قاتلناك قال : وكيف تقاتلوني وفي عسكري ثمانون ألف ذارع ! قالوا : نقاتلك بسهام الليل وسهام الأسحار فقال : لا طاقة لي بذلك .

...

.كان المعتصم ذا شجاعة وقوة يحب الشجعان ، قوته خارقة يحمل أرطالاً تعجز عنها الرجال ويمشي خطوات ، ويثني الحديد مرات بعد عجز الأبطال عنه ، يقول عنه وزيره أحمد بن أبي داؤد : كان المعتصم يخرج ساعده إليّ ويقول : يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك

. فيقول : إنه لا يضرني ، فأروم بذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان ، وكان مع ذلك شفوقاً غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل .

وكان يقول عن نفسه : قد علمت أني دون إخوتي في الأدب لحب أمير المؤمنين لي وميلي إلى اللعب وأنا حَدَث فلم أنل ما نالوا .

وكان يكتب كتابة ضعيفة ويقرأ قراءة ضعيفة . وقال الذهبي : كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن .

وقال الصولي : إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم ولا ظفر ملك قط كظفره ، أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياصح وملك فرغانة وملك طخارستان وملك الصفة وملك كابل.

***

. ٢٤ .

ابن خلدون

يعد ابن خلدون من كُتاب الأندلس وإن عاش أكثر حياته في بلاد المغرب وفي مصر لأنه أندلسي الأصل فهو من إشبيلية من أصل عربي يمني .

ويمتاز ابن خلدون بسعة الاطلاع وكثرة العلم وتنوعه كما يمتاز بالعمق في التفكير السياسي الاجتماعي .

وهو من العلماء القلائل الذين ابتكروا ولم يقلدوا فهو واضع أساس علم الاجتماع بمقدمته الشهيرة وإن كان أكمله علماء الإفرنج لا العرب ، وقد تعرض لطبائع البشر وأسباب تغيرها ، وقيام الدول وأن لها عمراً كعمر الأفراد ، كل ذلك في عمق .

ومن أبدع نظراته نظرته إلى التاريخ وأنه يجب أن يُبنى على تعليل الحوادث ومعرفة أسبابها ومطابقاتها لقانون السبب والمسبب ، ولا يصح أن يبنى على مجرد النقل إذا خالف العقل .

والمؤرخ محتاج إلى معارف متنوعة وحسن نظر وتثبت تؤدي به إلى الحق وتنكب به عن المزلات والمغالط .

وفي قسم من المقدمة أرخ العلوم الإسلامية كلها تأريخ خبير عالم ، وأسلوبه فيها رزين لم يعمد فيه إلى فخفخة السجع الكاذب ولا إلى الإطناب الممل فأسلوبه ينطبق على المساواة لا الإيجاز ولا الإطناب فاللفظ بقدر المعنى لا أكثر ولا أقل .

وقد تقلب في مناصب سياسية كثيرة من سفارة وقضاء ، ويظهر أنه كان حسن الحديث قوي التأثير في النفوس فقد رأينا أنه لما سافر إلى بِدرو أعجبه وقربه إليه ، ومرة ثانية لما سافر إلى تيمورلنك بدمشق . وتيمور لنك هو القاسي الجبار الفاتك . دخل ابن خلدون في مزاجه ودعاه أن يقيم معه فرأى ابن خلدون من الحيلة أن لا

يرفض ولكنه قال : إنه يذهب ليحضر أهله ويعود ، فذهب ولم يعد ، كما يظهر أنه خبير بنفسية من يخاطبه ولو كان من غير جنسه فإذا حدثه استلب عقله وعرف من أين تؤكل الكتف .

وعُرف أنه النفور منه وتنحيته عن المنصب بعد أن يعين فيه وعداؤه بعد الصداقة ، فابن الخطيب عاداه بعد أن صادقه ، وأنه تولى في مناصب خطيرة في تونس ثم عزل ، وولي منصب قاضي القضاة في القاهرة ست مرات يعزل ثم يولى ثم يعزل ثم يولى ، وقد يفسر هذا إما بصلابته في رأيه فليس يلين وإما بأنه محسّد لفضله فإذا رئي منه كثرة الصلابة في الحق واعتداده بنفسه حرّض ذلك غيره ممن هم أقل منه على الدس له والنيل منه . كما يظهر أنه صريح يقول ما يعتقده من الحق ولو آلم الناس كقوله : إن العرب إذا نزلوا بلدة أسرع إليها الخراب ، وأن أكثر العلماء من الموالي لا من العرب ، ونحو ذلك . كما أنه كان في قضائه يحكم بين الناس بالعدل ولو أغضب في ذلك ملوك زمانه وأمراءه .

ولا نبرئه من حدة في المزاج وسرعة في الانفعال كما لا نبرئه من جمود في العواطف فقد غرقت زوجته وأولاده في البحر ثم لا نراه يبكي لذلك ولا يتحسر عليهم ، بكاء أو تحسراً يتناسب مع الفجيعة .

ومقدمته كاملة مصقولة أما تاريخه فمهوّش لم يُصقل ولم يسر فيه على القواعد التي وضعها في مقدمته .

والمقدمة لها أصول من كتب عربية كسراج الملوك للطرطوشي وكتب مترجمة عن اليونانية ، ولكن إذا قارن الإنسان بينها وبين ما كتب ابن خلدون وجده ابتكر فيها وزاد عليها وأخرجها مُخرجاً جديداً قد يظهر بعض خطئه في نظريات قالها إذا نحن نظرنا إليها على ضوء ما وصل إليه علم الاجتماع الحديث لكن كفاه فخراً أنه أدرك في زمانه ما لم يدركوه إلا بعد قرون طويلة ، وتعد مقدمته وتاريخه من غير شك تدويناً يكاد يكون تاماً للحضارة الإسلامية .

وله كتب أخرى في علم الكلام وفي التصرف ولكنها كلها لا تبلغ مقدمته . وعلى الجملة فابن خلدون جمع في شخصه ما وصل إليه العلم العربي في الشرق قبله ثم هضمه وعرضه عرضاً وافياً حسب استعداده وميوله ونكاد نقول إن العلم والأدب والتاريخ تحجرت بعد ابن خلدون وابن الخطيب إلى أن أتت النهضة الحديثة .

***

. ٢٥ .

ابن الخطيب

هو لسان الدين ابن الخطيب ، وهو وزير مشهور ، من أجله ألف المعَرّي الكتاب الكبير ((نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب في ترجمة لسان الدين ابن الخطيب)) في أربعة أجزاء كبار ، ذكر فيها الأندلس وما جرى لها من مبتدئها ومنتهاها ولسان الدين وشيوخه ورسائله .. الخ ، فكان الكتاب نعمة من آثار ابن الخطيب .
وقد وُلد لسان الدين بمدينة غرناطة في سنة ٧١٣ هـ وكان أبوه ذا شأن عظيم عند ملوك بني الأحمر فربّاه تربية دقيقة واسعة ، علمه الطب والفلسفة والأدب والفقه والتفسير والحديث ، فكان عالماً أديباً ، وقد ألف في ذلك ، وقالوا إنه أصيب بالأرق فاستعان بالتأليف عليه ، وكان واسع العلم بالتاريخ ، وألف في علماء غرناطة كتابه ((الإحاطة)) وله رسائل أدبية وسياسية تتصف بالإطناب والتزام السجع حتى تملّ ، وابتلى كما ابتلي غيره من علماء الأندلس بالحسد من خصومه ودس الدسائس له حتى اتهم في دينه بالزندقة وقوله في كتبه أشياء لا يقرها الدين ولعب في السياسة حتى احترق بها واتخذت الزندقة ذريعة للنيل منه .
وأخيراً أفتى الفقهاء بقتله فخُنق في سجنه ، وألف كتباً كثيرة ، وكان صديقاً لابن خلدون بعض الوقت ثم فسد ما بينهما .
وتمتاز رسائله بدقة الوصف وغزارة المعنى ، وله مقامة في السياسة على نحو مقامات الحريري بناها على أن هارون الرشيد ضاق صدره يوماً فطلب أن يُحضر إليه من يُعثر عليه فحُشر له بعض القوم وكان منهم رجل غريب المنظر فسأله الرشيد عن أصله وفنه فقال : إنه فارسي وفنه الحكمة فسأله عن السياسة فأبدع فيها حتى انتصف الليل ثم استدعى عوداً وظل يغني عليه حتى أنام الحاضرين كلهم وخرج فلم يُعثر له على خبر.

وقد تعرض في هذه المقامة إلى الرعية والسلطان والوزير والجند والعمال والولد والخدم والحرم ...

وقد استقى هذه الأمور كلها من تجاربه إذ كان وزيراً وكان مطلعاً على التواريخ خاصة تاريخ بلاده ، كما كتب ترجمة عظيمة عن صديقه ابن خلدون .

ولابن الخطيب كتب كثيرة نحا فيها نحو المتصوفة فله مثلاً كتاب اسمه ((المحاضرات)) وهو عبارة عن جمل مختارة من أقوال مشاهير المتصوفة . وله المواعظ الصوفية اللطيفة ، ثم إلى جانب ذلك كتب في الأدب .

قال المعَرّي : ((إن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلون وسوق دُررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم [1] ويحلون وخصوصاً كتابه [ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب] فإنه وإن تعددت مجلداته على فن الإنشاء والكتابة مقصور)) .

وكما برز ابن الخطيب في النثر فقد برز في الشعر ، فله الشعر الكثير وله الموشحات اللطيفة والأزجال الظريفة وهي لا تقل شأناً عن قيمته في النثر .

فالذي يظهر لنا أن الثقافة الأندلسية من أولها إلى آخرها قد صفيت وتقطرت في لسان الدين بن الخطيب في تعدد مناحيه وسعة علمه وكثرة إنتاجه .

****

---

(١) طروسهم : صحفهم ، الصحيفة التي محيت ثم كُتبت ، اللسان مادة : طرس .

. ٢٦ .

ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي ، وهو من أهل قرطبة ، شارح أرسطو يوم لم يكن أحد في أوربا يستطيع فهمها حتى عرف من أجل ذلك في أوربا باسم (الشارح) ويعنون شارح كتاب أرسطو ، ولكنه لم يكن شارحاً لكتب أرسطو فقط ، فكثيرا ما كانت شروحه على أرسطو في حقيقتها حجة لإبراز آرائه الشخصية أو تفسير الآراء القديمة تفسيراً صحيحاً ، هذه الشروح كانت الوسيلة الوحيدة لفهم أرسطو حتى أنها كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسها وقد نقلت كتب ابن رشد إلى العبرية واللاتينية وطبعت في البندقية وحدها أكثر من خمسين مرة .

ولقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوربي وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه ، وخصوصاً بما حملت معها من آراء مادية وطبيعية وشمولية ، ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد وبإصابة آرائه ، وهكذا نشأ بينهم مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث وترك الاعتماد على الروايات الدينية .

ثم لما اجتاحت فلسفة ابن رشد عقول الفلاسفة في العصور الوسطى وساد العقل في كل مكان هبت الكنيسة لتقاوم هذا التيار الجارف بكل سبيل ؛ فابن رشد يعتقد صراحة أن هنالك أموراً لا تصح في الدين ولا تصح في الفلسفة ، وأن ثمة أشياء تصح في الفلسفة ولا تصح في الدين ، وابن رشد يقبل طبعاً كل ما جاءت به

الفلسفة وكذلك يقبل كل ما جاء به الدين ولكن على شرط واحد هي أن يتأول بعض الروايات الدينية التي لا تتفق في ظاهرها مع الرأي الفلسفي ، كما قال بأزلية المادة وأن فيها قوة كامنة هي التي تدفعها في تطورها الدائم المستمر ، وقال بوحدة العقل وفناء الأنفس الجزئية أما الذي يُخلّد فعقل الإنسانية جمعاء . من أجل ذلك أعلنت الكنيسة على ابن رشد حرباً شعواء دامت قرنين كاملين فحرمت دراسة الفلسفة وتدريسها وقتلت مناصريها وأحرقت كتبها .

وقد وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ وأخذ يتعلم الشريعة من فقه وأصول وكلام ثم التفت إلى الطب فدرسه ومهر فيه ثم انتقل إلى الفلسفة وقد قربه وحماه الخليفة الموحدي ـ الأمير يوسف ـ وولاه قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥هـ ثم ولى طب الأمير بعد ابن طفيل . ثم خلف الأميرَ يوسف الأمير يعقوب وقربه إليه ابن رشد كذلك إلا أن بعض الوشاة حقدوا عليه فوشوا به إلى الأمير وزاد الأمر سوءاً أنه قد شاع عند العامة في وقت من الأوقات حصول أرياح شديدة تهلك الحرث والنسل وأنها تكون كالرياح التي أرسلت على عاد فروى عن ابن رشد أنه قال : ((والله وجود قوم عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم ؟)) ولو صحت هذه الجملة عن ابن رشد لكان معناها أنه ينكر القرآن وزيادة على ذلك أنهم فتشوا في كتبه الفلسفية فوجدوا فيها ما ينافي الدين فأمر الأمير بمحاكمته فكان ابن رشد في ذلك صريحاً صادقاً فلم يتزلف للأمير وشهد الجلسة الكبرى لمحاكمته ومع قولهم بأنه مرق من الدين إلا أن الأمير لم يحكم فيه بالسيف بل نفاه إلى قرية قريبة من قرطبة سكانها من اليهود . وتفرق عن ابن رشد تلاميذه لما وجدوه يُضطهد ، ثم عفا عنه الأمير بعد أن هدأت العامة ولكنه لم يعش بعد العفو طويلاً فمات وعمره خمسة وسبعون عاماً سنة ٥٩٥هـ .

***

. ٢٧ .

العز بن عبد السلام

مُنيَ العالم الإسلامي في القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع بسلسلة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية وأهمها حرب الصليبيين والتتار مما أدى إلى تضعضع الكيان الإسلامي وانتشار الفساد في مختلف فئات المجتمع ، وأصاب المحيط العلمي رذاذ من ذلك الفساد والانهيار فسكت أكثر العلماء عن الجهر بالحق وسايروا الحاكمين رغبة أو رهبة ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة تحت تأثير الدعوات الصوفية التي انتشرت بقوة في أنحاء العالم الإسلامي كله ، وكان أقصى أماني الصالحين منهم أن ينجوا بأنفسهم من الفساد ويسلموا من معايشة الشر والرضى بالمنكر .

في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهب على قلوب اليائسين وعزمة من عزمات الإيمان تنبعث في أوساط المتخاذلين وسوطاً من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين .

إن العز بن عبد السلام شخصية فذة قد آتاه الله من العظمة ما لم يؤت عالماً غيره في عصره وتتلخص مظاهر عظمته في ثلاث نواحي هي :

١. جرأته في الحق وشدته على المبطلين وإخلاصه النصح لله ولرسوله وللمسلمين إخلاصاً أورده المهالك ولكنه كان في نفسه أعظم من أن يستحضر الخوف من المهالك ، كان يقول لابنه : ((يابني : إن أباك أحقر من أن يقتل في سبيل الله)) ولقد جهر بالحق مرة أمام سلطان مصر نجم الدين أيوب وناداه باسمه المجرد فسأله تلميذه بعد ذلك : أما خفت السلطان ؟ فأجاب الشيخ : والله يا بني لقد استحضرت عظمة الله في نفسي فرأيت السلطان أمامي كالقط !

٢. جهاده في سبيل الله وتحريضه الناس على قتال التتار وخوضه المعارك على كبر سنه وحاجة المسلمين إليه فقد كان يراعي واجبه وحاجته إلى رضى الله عنه .

٣. غوصه العظيم على أسرار الشريعة وإحاطته بمقاصدها بل بمقصدها الأعظم وهو رعاية مصالح العباد وإذا هو بذلك يستذكر أحكام الشريعة في كتابه العظيم ((قواعد الأحكام)) استذكار الإمام الفقيه الذي استمد علمه من لدن حكيم عليم .

ولقد كانت واحدة من عظماته الثلاث كافية لتخليده في رحاب العظماء الخالدين من رجال الدنيا والدين ولا يكسف نور واحدة منها نور الأخرى .

***

. ٢٨ .

الحسبة

الحسبة أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف)) التوبة ٧١ ، وهي تتعلق بالنظام العام والآداب ومراقبة الأسواق والتجار وأرباب الحرف يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومصنوعاتهم ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصحيحة وربما سعر عليهم بضائعهم.

وكان منشأ الحسبة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح مسلم : أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرّ على صُبرة [1] طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام فقال : أصابته السماء يا رسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس [من غشنا فليس منا] .

---

(١) صبرة : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض : لسان العرب : مادة صبر .

وكان عمر رضي الله عنه يطوف الأسواق ودرَّته معه فمتى رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه وربما أتلف بضاعته .

وأجمع المؤرخون على أن منصب الحسبة نشأ في العهد العباسي أيام المهدي وظلت من جملة التشكيلات التي أخذت بها الممالك الإسلامية فيما بعد ، ولخطورة هذا المنصب كان يُنتقى المحتسب من أصحاب الرأي والصرامة والعلم والورع والتقوى .

ومن أهم وظائف المحتسب أنه يراقب كل صاحب مهنة يتكسب بها مهما يكن نوع هذه المهنة سواء كان طبيباً أم معلماً أو بائع حلوى .. ويراقب الصُنّاع والتجار مراقبة حازمة ويفاجئ أرباب الحرف مفاجأة أو يدس إليهم رجالاً لا يعرفونهم ، وتوصل المحتسبون إلى تقرير مبدأ قانوني لم يصل إليه الأوربيون إلا في العصر الحاضر وهو أن يجعلوا المعلم مسؤولاً عن أجيره بطريقة التكفيل وذلك أن بعض أصحاب المتاجر والصَّنعات يحاولون التهرب من تبعة أعمالهم بادعائهم أنهم غير مسؤولين عنها لأن أجراءهم هم الذين فعلوها .

وعلى المحتسب مراقبة الأسعار والموازين ليمنع احتكار السلع ويتدخل في التسعير ، وكانوا في الأندلس يسعرون الأشياء الضرورية للحياة كالخبز واللحم ويضعون عليها أوراقاً بسعرها . وعلى المحتسب مراقبة الأخلاق العامة فيريق الخمور ويمنع الناس من تطيير الحمام وعند اتخاذ الأكساب الفاجرة ويمنع السحرة والكهان عن منكراتهم ويمنع تعرض الرجال للنساء .

وعلى المحتسب مراقبة العبادات فيعني بنظافة الجوامع وهيبتها ويمنع الصبيان والمجانين من دخول المساجد وينهون عن وضع الأمتعة فيها .

كما يعني المحتسب بالأبنية والطرق فيهدم كل بناء يبرز به صاحبه إلى الطريق فالطريق ملك العامة ويمنع الناس من فتح النوافذ على صورة يشرفون منها على منازل غيرهم ويدعو أصحاب الدُور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها عن الطريق ، كما يراقب المحتسب مقاعد الأسواق فيمنع ما يضر منها بحركة المرور .

وأما الطرقات ودروب المحلات فلا يجوز لأحد إفراج جدار داره أو دكانه فيها إلى الممر المعهود ، وكذلك كل ما فيه أذية أو إضرار على السالكين كالميازيب أن يجعلوا عوضها سيلاً محفوراً في الحائط مكلساً يجري فيه ماء السطح .

ويقوم المحتسب بالقضاء في بعض الدعاوي مثل دعوى البخس في الكيل والميزان ودعوى الغش والتدليس في بيع أو ثمن ودعوى المطل والتأخير في سداد دين ثابت مع المكنة .

ويقوم المحتسب بأعمال أخرى مختلفة مثل الدعوة إلى عمل الخيرات والمبرات والرفق بالضعفاء حتى تدخل بعلف البهائم وألا تستعمل فيما لا تطيق ، مع السهر على الدواب الضالة والأشياء الضائعة والتماس من يحفظها ثم يعيدها إلى أصحابها ، ومنع السفن من الإقلاع إذا خاف غرقها لزيادة حمولتها أو بسبب الأحوال الجوية المضطربة .

وقد يتعرض الموظفين الذين يتهاونون في قضاء مصالح العباد كمحاسبة القاضي إذا تأخر في الفصل بين المتخاصمين دون عذر مقبول .

. وهناك آداب كثيرة تطلب من المحتسب منها أن يظهر في الناس بهيئة حسنة ويقص شاربه ويقلم أظافره وينظف ثيابه ويتعطر بالمسك ، يقول السَّقطي في آداب الحسبة ((يجب أن يكون من ولي النظر في الحسبة فقيهاً في الدين قائماً مع الحق نزيه النفس عالي الهمة معلوم العدالة ذا أناة وحلم وتيقظ وفهم عارفاً بجزئيات الأمور وسياسة الجمهور ، لا يستخفه طمع ولا تلحقه هوادة ولا تأخذه في الله لومة لائم ، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه وترهب الجاني لديه ..)) وهذا لا يمنع أن يكون رفيقاً لين القول طلق الوجه ((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف)) دخل رجل على المأمون فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر وأغلظ له القول فقال له المأمون : ((يا هذا إن الله أرسل من هو خير منك لمن هو شر مني ، أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقال لهما [فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى])) .

. ٢٩ .

عمر واختيار الأمراء

الأصل في اختيار الأمراء أن يكونوا من أصحاب الأمانة والزهد والصبر بالعمل الموكل إليهم دون النظر إلى قرابة وفي العصرين الأموي والعباسي اختير الرجل القوي القادر على قمع الفتن وضبط الأموال .

أما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه أراد أن يستعمل رجلاً فبدر الرجل بطلب العمل فقال له : قد كنا أردناك لذلك ولكن من طلب هذا العمل لم يُعن عليه .

وكان رضي الله عنه إذا استعمل رجلاً كتب عليه كتاباً أشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار بأنه لا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله ولا يستغل منصبه لفائدة أو مصلحة له أو لمن يلوذ به فكان ذلك بمثابة القسم الذي يوجبه القانون على القضاة والأطباء وأمثالهم قبل مباشرتهم العمل .

وكان يقول للعامل بعد ذلك محدداً سلطته مبيناً له حقيقة عمله : إني لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم (الأعطيات) وتحكم فيهم بالعدل ثم يشترط عليه رابعاً ألا يركب دابة ولا يلبس ثوباً رقيقاً ولا يغلق بابه دون حوائج الناس .

وكان لعمر جهاز سري مربوط به لمراقبة أحوال الولاة فكان عمله بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد .

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله ، وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله كسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة ولم يظهر له منهم ما يوجب التهمة فقاسمهم من قبيل الاحتياط ، ولو تبين خيانتهم لم يدع لهم شيئاً ، وكان يأمر إذا قدم عليه العمال أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحجبوا شيئاً من الأموال .

وتتلخص فلسفة عمر في الإسلام في مسألة الإمارة بكتابه إلى أبي موسى الأشعري ((عبد الله بن قيس)) يقول فيه : ((أما بعد فإن الناس نفرة من سلطانهم فأعوذ بالله أن يدركني وإياك ، فأقم الحدود ولو ساعة من النهار ، وإذا حضر أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخِفِ الفُسَّاق واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً ، عد مريض المسلمين واحضر جنائزهم وافتح بابك وباشر أمورك بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حِملاً ، وقد بلغني أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا لتسمن وإنما حتفها في السِّمن ، واعلم أن العامل إذ زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقيت به رعيته)) .

***

. ٣٠ .

صاحب المظالم

المظالم : جمع ظَلامة ومظلمة تقسم إلى قسمين : ظلم الولاة والجباة والموظفين ، وظلم الأفراد للرعية ، وصاحب المظالم منصب للنظر في أعمال الولاة والحكام ورجال الدولة والمتنفذين[١] خاصة والرعية عامة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من نظر في المظالم عندما أرسل علياً لدفع دية القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد خطأ من قبيلة بني جذيمة.

وأفرد عبد الملك بن مروان يوماً للظلمات يتصفح فيه قصص المتظلمين من جور الولاة وظلم الفتاة ، وجلس المهدي والهادي والرشيد والمأمون للنظر في المظالم حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها ، وقيل إن عمر بن عبد العزيز هو أول من ندب نفسه للنظر في المظالم كما جاء في الأحكام السلطانية [٢] .

يستكمل صاحب المظالم مجلسه بحضور خمسة أصناف لا يستغني عنهم أحدهم الحماة والأعوان لجذب القوى وتقويم الجريء، والصنف الثاني القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ، ومعرفة ما يجري في مجالسهم بين الخصوم ، والصنف الثالث الفقهاء ليرجع إليهم فيما أشكل ويسألهم عما اشتبه وأعضل ، والصنف الرابع الكُتَّاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجب لهم أو عليهم من الحقوق ، والصنف الخامس الشهود ليشهدهم على ما أوجبه من حق وأمضاه من حكم ، فإذا استكمل مجلس المظالم شرع صاحب المظالم في نظرها .

. أقسام المظالم :

والنظر عند الماوردي يشتمل على عشرة أقسام :

١. تعدي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة.
٢. جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

٣. كُتاب الدواوين لأنهم أمناء على أموال المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه ويوّفونه فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان أرجعه إلى قوانينه وأدب المذنبين منهم .

٤. تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجزيهم عليه .

٥. رد الغُصوب وهي ضربان : غصوب سلطانية قد تغلّب عليها ولاة الجور وهي موقوفة على تظلم أربابه ، والضرب الثاني من الغصوب ما تغلب عليه ذوو الأيدي القوية وتصرفوا فيه تصرُف المِلاّك بالقهر والغلبة ، وهذا موقوف على تظلم أصحابه .

٦. مشارفة الوقوف العامة والخاصة ، والعامة يبدأ تصفحها وإن لم يكن فيها متظلم ليجريها على سبلها ، وأما الخاصة فإن نظره فيها موقوف على تظلم أهلها عند التنازع فيها .

٧. تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده أو لعلو قدره .. فيكون ناظر المظالم أقدر يداً وأنفذ أمراً .

٨. النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسَبة في المصالح العامة كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه والتعدي في طريق عجز عن منعه والتحيف فيما يقدر على رده .

٩. مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد .

١٠. النظر في المتشاجرين والحكم بين المتنازعين فلا يخرج في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه .

. الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة :

لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم عن التجاحد ومنع الظَلَمة عن التغالب والتجاذب فهو أوسع مجالاً وأوسع مقالاً .

وناظر المظالم أكثر تأنيباً في ترداد الخصوم عند اشتباه الأمور ، وله رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلا عن رضى الخصمين بالرد .

ومما يُذكر أن الرحمة كثيراً ما سادت مجلس صاحب المظالم في حق الدولة ، ((أتى المنصور برجل يعاقبه على شئ بلغه عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدل والتجاوز فضل ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضَ لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين ، قال الراوي : فعفا عنه)) .

**

(١) المتنفذين : ذوو النفوذ الذين يتحاكم الناس إليهم يقال للخصوم إذا ارتفعوا إلى الحاكم قد تنافذوا إليه . اللسان مادة نفذ .

(٢) نقلاً عن كتاب الحضارة العربية الإسلامية لشوقي أبو خليل .

خاتمة

يستطيع القارئ الواعي أن يترجم ما قرأه من أحداث التاريخ إلى دروس عملية يستفيد بها في واقعه الذي يحياه ليربط الماضي بالحاضر ويتنبأ بأبعاد المستقبل .
إن القارئ للتاريخ لابد وأن يشعر بحقيقة " أن التاريخ يعيد نفسه " مع اختلاف الزمان والمكان والأشخاص ؛ لأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل ((فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا))
ومن أهم الدروس المستفادة من قراءتنا للتاريخ الإسلامي ما يلي :

- ألف شهيد كل عام : فلو أننا حصرنا عدد الشهداء في الفترة الزمنية من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أي في العام الحادي والثلاثين من الهجرة أي فترة عشرين عاماً فسنجد أن العدد الإجمالي لشهداء المسلمين في هذه الفترة يصل تقريباً إلى عشرين ألف شهيد أي بمعدل ألف شهيد كل عام يموتون فداء لدينهم .
- أن أمة الإسلام أمة لا تموت : لأن الإسلام شريعة الله الخاتمة ومن ثم فهو يخلق له رجاله لذلك نرى أن هذه الأمة لم تعدم في عصر من عصورها مجددين في الدين وأئمة في العلم وأبطالاً في الجهاد وهذا بلطف الله تعالى إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت أمانة الإنسانية .
- على الرغم مما وصم به أعداء الإسلام الخلفاء المسلمين بأنهم كانوا فاسدين أو مترفين إلا أن هؤلاء الخلفاء لم يفكروا للحظة واحدة في تنحية شريعة الإسلام عن الحكم ولم يتولد لديهم هذا الانفصال السائد اليوم من فصل الدين عن الدولة والسياسة. وكان للإسلام هيبة لديهم وكان لهم قوة في النصح والإرشاد حتى أنهم كانوا يقولون (الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك) .

- هدف الجهاد الإسلامي : فقد كان الجهاد هو الأساس لإزالة العوائق والطواغيت التي تحول بين الناس وبين التعرف على الإسلام واختياره بملء حريتهم وليس مقصوراً على حالات الدفاع عن النفس والوطن والعرض فقط .
- التربية الإسلامية تصنع العظماء : إن مشاهير الخلفاء والسلاطين الذين حكموا وهم شباب كانوا نِتاج تربية إسلامية مبكرة ، الأب يربي ابنه على القرآن والفتوة وحب الجهاد منذ الصغر .
- التسامح في الإسلام مع غير المسلمين لم يكن في التاريخ الإسلامي عن عجز أو ضعف وإنما كان عقيدة وإيماناً .
- ديننا للناس كافة : إن من دلائل أعجاز الإسلام أن حمله في كثير من الأحيان أجناس من غير الجنس العربي سواء في الجانب الجهادي أو الجانب العلمي .
- حسن ظن بعض قادة المسلمين بأعدائهم وعدم الحذر من مكرهم وعذرهم جلب عليهم ولا أمتهم الوبال والهلاك .
- الصراعات السياسية وأثرها في إضعاف الأمة .

. هذا وقد لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في نقاط هي :

- الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك .
- الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء .
- الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتع والشهوات حتى أُثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم .

- الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم من مغبة الغفلة .
- الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم والاندفاع في تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع تحذير الإسلام من مغبة هذا التقليد .
- اليأس من رحمة الله وفقدان الثقة في النفس.
- استخذاء المسلمين أمام الأوروبيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام .
- مواطأة المسلمين للأوروبيين على إخوانهم وخدمتهم إياها .
- فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوروبية .
- فساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة .
- فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات .

هذا وقد ذكرت في كتابي هذا ثلاثين صورة من تاريخنا الإسلامي في مختلف عصوره متوخية الأمانة والدقة العلمية لتكون لنا عظة وعبرة ونستلهم منها دروساً لنا تفيد أمتنا في واقعنا المعاصر ومستقبلنا إن شاء الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الأربعاء ٢٠٠٨/٤/٩م

المراجع

١) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي : أ / د راغب السرجاني : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة . (القاهرة)

٢) الدولة العباسية الشيخ محمد الخضري : دار المعرفة : بيروت

٣) دولة الموحدين الدكتور محمد على الصلابي : مؤسسة اقرأ بالقاهرة .

٤) الدولة الفاطمية الدكتور محمد على الصلابي : مؤسسة اقرأ بالقاهرة .

٥) الدولة العثمانية الدكتور محمد على الصلابي : دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٦) الحضارة العربية و الإسلامية : أ / شوقي أبو خليل: منشورات كلية الدعوة الإسلامية – ليبيا .

٧) ظهر الإسلام : أحمد أمين : مكتبة النهضة المصرية .

٨) تاريخ الخلفاء : الإمام جلال الدين السيوطي : دار المعرفة : بيروت .

٩) عظماؤنا في التاريخ : الدكتور / مصطفى السباعي : المكتب الإسلامي : بيروت

١٠) صاحب الخلق الراقي: د / خالد عمر الدسوقي : غراس للنشر والتوزيع بالقاهرة .

١١) قصة والإسلاماه لعلى أحمد باكثير : مكتبة مصر بالفجالة .

١٢) مواقف ومواعظ من حياة التابعين : عبد العزيز الشناوي : مكتبة الإيمان بالمنصورة .

١٣) شهيد المحراب عمر بن الخطاب : عمر التلمساني : دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة .

١٤) العشرة المبشرون بالجنة : سمية عبد الحليم عويس : دار العبيكان بالسعودية .

١٥) ضحى الإسلام : أحمد أمين : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٦) البداية والنهاية لأبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي – مكتبة التوفيقية

١٧) مدخل إلى الحضارة الإسلامية للدكتور / عماد الدين خليل : المركز الثقافي العربي .

١٨) الحضارة : د / حسين مؤنس — سلسلة عالم المعرفة .

١٩) قيم من الميراث : د / ذكى نجيب محمود : دار الشروق — مصر — القاهرة .

٢٠) العبقريات : أ / عباس العقاد المكتبة العصرية .

٢١) الحضارة الإسلامية : أ . د / عبد الحليم عويس دار الصحوة . بالقاهرة .

٢٢) تفسير التاريخ : أ . د / عبد الحليم عويس : دار الصحوة : بالقاهرة .

٢٣) مالك بن نبي : كتب حضارية متعددة : دار الصحوة .

٢٤) الحضارة العربية : جاك س . ريسلر : ترجمة غنيم عبدون : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٢٥) الحضارة الإسلامية بأقلام غربية وعربية : عبد التواب يوسف : الدار المصرية اللبنانية : القاهرة

٢٦) ملامح الحضارة العربية الإسلامية : فلرنشيسكو جبريلى , ترجمة : محمد حسن خلاف : الدار القومية للطباعة والنشر

٢٧) رجاء جارودى وحضارة الإسلام : أمينة الصاوي — د / عبد العزيز شرف : مكتبة مصر بالفجالة .

٢٨) أثر العرب في الحضارة الأوربية : عباس العقاد: دار المعارف — مصر .القاهرة.

٢٩) مستقبل الحضارة : ج . دي بويس ، ترجمة: لمعي المطيعي — دار الكرنك — باب الحديد بالقاهرة .

٣٠) الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)

الفهرس

- **مقدمة**
- **القسم الأول :**

لمسات في الحضارة .

- **القسم الثاني :**

صور حضارية من تراثنا العربي القديم

- **القسم الثالث :**

قيم حضارية من تراثنا الإسلامي

- خاتمة
- المراجع
- الفهرس